أفئـدة الطيـر

شعـــر

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 3910250
فاكس: 3909618- ص.ب 2022 - القاهرة
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com
تجهيزات فنية : الإسراء- ت : 3143632
طبع: آمون ت: 7944517 - 7944356
رقم الإيداع: 16401 / 2005
الترقيم الدولي: 1 -934 - 270 - 977

الطبعة الأولى : شعبان 1426هـ - سبتمبر 2005 م

أفئدة الطير

شعر

د.أحمد درويش

الدار المصرية اللبنانية

إهـــداء

كـلُّ الصبايا إذا أشرقتِ تَنْحسرُ

يـا أيهـا الرشـأ الميـاس يا قمـرُ

هـنَّ الـنجوم، ولكـنّ الـنجوم إذا

تـلألأ الــبدر لا عــينٌ ولا أثــرُ

بين يدى الطبعة الثانية

مع أن القصائد التى يضمها هذا الديوان، قُدِّر لها أن تتباعد فترة من الزمن حتى تلتقى بين دَّفَتْى كتاب واحد، فإن ظهور طبعتها الأولى فى العام الماضى، أوحى بعد فترة قليلة من الزمن بالحاجة إلى إصدار طبعة ثانية.

وقد تم الحرص، من خلال الحوار حول الطبعة الأولى، على إعادة النظر فى بعض جزئيات الإخراج الفنى للقصائد، مثل شكل الحروف، ومواقع السطور، وترتيب القصائد، وإضافة قصائد جديدة.

وتأمل القصائد من خلال إعادة تقديم نفسها لقارئها، أن تجد لديه مزيدًا من التواصل، وأن تجرى معه مزيدًا من الحوار.

أحمد درويش

" تجربتى مع الشعر"

لم أدرِ أبدًا كُنْه تلك الرَّجفة التى اعترتنى وأنا أحاول مُزاوَجة الكَلِمات للمرة الأولى؛ لأصنع منها ما كنت أظنه شعرًا فى الصِّبا المبكِّر وأعرضه فى غِبْطة على "شيخ الكُتاب" محفظ القرآن فى قريتنا؛ فيبدى إعجابه فى تحفُّظ، ويتمنّى أن تتوالى المحاولات حتّى يصل بها نضجها إلى صَلاحية نَشْر إحداها فى جَريدة الجمهورية، التى كان يحرص "سيدنا" على أن يتصفَّحها فى جلسته المتربِّعة وسط خلية النحل الهادِرة من أصوات الصبِّيان، وهم يرددون "سور الماضى "على إيقاع صوت" العريف "وعلى حَذر عَصا "الشيخ" التى تسترخى فى يمناه رغم تظاهُره بتصفُّح الجريدة، ولكنها تنقض فى لمح البَصر على فَخذ الصبى الذى يتعثر فى القراءة.

ولقد كان من ثمرات هذه المحاولات الأولى أن أكسبتنى على الأقل رضا "سيدنا" وأهلتنى لنوع من الصداقة المبكرة معه، أفلتُّ معها من كثير مما كان يلقاه رفاقى، وأكسبتنى أيضًا متعة امتلاك "سر" خاص، أحاطته مراحل الصِّبا بمزيج من الرِّضا والثِّقة والزهو والتَّقديس وعندما رحل "سيدنا" وأنا طالب فى الجامعة، بكيته بقصيدة، كانت تستحق فيما أظن أن تنشر فى إحدى جرائد الصباح، ولكن سيدنا

لم يتح له أبدًا أن يراها هناك لكى يعلن رِضاه التّام عن المحاولات الأولى.

كانت قريتى "منيل السلطان" واحِدة من عَشرات القرى المتناثِرة على الشّاطئ الشّرقى للنيل جنوب القاهرة بنحو ثمانين كيلو مترًا وكانت هى المجال الذى حاولَتْ من خِلاله هذه الرَّجفة الأولى أن تتمدَّد وأن تَتَشكَّل وتتنفَّس وتتلمَّس بعض أسرار "الباطن" الكامِنة وراء بَساطة "الظاهر".

كان الأفُق المفتوح بلا نهاية فى وضُوح النَّهار القوى يكاد يلغى الحَواجِز بين الخُصوصيّات، فالحُقول متراميِة ممتدَّة، يتراءى الناس خلالها من مساحات شاسعة، ويتسامعون عبر القنوات والأنهار الصغيرة، وتتعوَّد أصواتهم على أن تعلو فى التَّخاطُب للتغلب على رحابة المكان، وتفتح أبواب الدّور فيشد أزيزها الآذان، فيعلم النّاس من خرج مبكرًا ومن عاد متأخرًا، ومن سافر إلى البَنْدر ومن تأخرَّ عن الصَّلاة، ومن ملأت جرارها من النهر فى لَحظة صَفاء الصبح ومن أكل الثعلب فراخها.

وكانت العجائز يشغلن المصاطب وواجهات الدّور فتتهاوى أمام الثَّرثرة معاقل الأسرار الأخيرة، وتبدو القرية كأنها جَسد كبير يتنفَّس برِئة واحدِة، أو جماعة "ملحمية" تكاد تذوب فيها خَصائص الفرد لصالح حركة الفريق. لكن أسرار "الباطن" تنمو أزهارها إذا هَبط الليل، وانسحب الضَّوء الفاضِح الكاشِف، وحلَّ محله - قبل أن تدخلَ الكهرباء إلى الرّيف - ضوء مصابيح الغاز التى لا يكاد يقاوم فتيلها هبة النسمة القوية، ولا يند عن قانونها إلا بعض "الكلوبات" المتوهَّجة فى

مَنازل الوجهاء، فتصبح استثْناء يؤكّد قاعدة الضَّوء الخافت فى ليالى القرى، حيث تلتقى الجماعات حول المدافئ أو على رؤوس القَناطر أو فى ملتقى الطُّرقات حسب مواسِم العام، وحيث تنهضُ الخصوصيات المقهورة حقيقة أو ادعاء فى شكل حكايات البطولة والمغامرات التى كنت أميل كثيرًا إلى سماعها وإلى التمتُّع بالصّادق منها والكاذِب على سَواء.

ولا أنسى شَخصية "حسن أبو عبد الراضى" ابن قريتنا الذى كان قد قطع شوطًا ضئيلاً فى بداية مرحلة التعليم المتوسِّط فى بنى سويف؛ ثم عاد إلى القَرْية ليستقرَّ للعمل فى الحَقل، وكان يملكُ طاقة خيال واسعة، وإن كان أبناء القرية يطلقون عليها أسماء أخرى مثل "النتش والسرح والمعر"، وكنت أرشوه بما يتجمَّع لدى بين الحين والحين من قروش ضئيلة حتّى يستمرّ فى سرد حكاياته الخيالية والتى تكون القرية مسرحها فى كثير من الأحايين، والتى تثير بدورها خيالى إلى أبعد مَدى فى لَحظات التأمُّل التى كنت أميل خلالها إلى العزلة عن الآخرين.

كانت بداية الاتِّصال الحَقيقى بالشعر والقراءة فيه عندما رحلت إلى القاهرة فى سن العاشرة لكى أطلب العِلْم فى مَعاهد الأزهر. وواجهتنا "متون" العلوم فى صُورها المنظومَة المكثفة، فجَلجل إيقاع بحر الرجز فى آذاننا وتعودنا موسيقاه حتى قبل أن نعى تمامًا معانى كلمات المْتُون، ولعل هذه البداية المبكرة هى التى جعلتنى حتّى الآن - رغم اتِّصالى بالثقافة الأجنبية، وتعاطُفى مع موجات التجديد - لا أتخيَّل الشِّعر بمَعزِل عن الإيقاع مع تَقْديرى لأهميِّة العَناصِر الفنية الأخرى التى تتشكَّل منها القصيدة.

وإذا كان إيقاع "الرجز" قد جلجل فى آذاننا مع المنظومات؛ فإن الإيقاعات الأخرى للقَصيدة العربية قد بدأت تتوالى فى شكل النُّصوص والشَّواهد والنَّوادر والأمثال والحكايات، وتخلَّل الشعر كل كِتاب نفتحه وكل صوب نتجه إليه، وعندما بدأنا دراسة علم العروض فى المرحلة الثانوية لم يجد أصحاب الآذان الموسيقية صعوبة تذكر فى الاستيعاب والتثبيت والتشرُّب والتطبيق، على حين استغلق ذلك العلم ولا يزال على الذين حرموا مَوْهِبة التقاط النَّغم، فظلوا حائِرين على أبوابه حتى بعد أن أصبح البعض منهم علماء متبحَّرين فى بعضِ فُروع العربيَّة الأخرى.

كانت مَرْحلة الدِّراسة الثانوية فى الأزهر فى أوائل الستينيات؛ هى تلك المرحلة التى تحوَّلت فيها الرَّجْفة المتردِّدة إلى موهبة تتلمس طريقها، وتستكمل أدواتها، ويزداد فى الوقت نفسه ظمؤها، ولم تكن المثبطات قَليلة؛ لكن المشجعات لم تكن منعدِمة.

كان بعض من شيوخ الأزهر يشجِّعون طُلاَّبهم فى ذلك الوَقْت على القراءة الحرَّة وارتِياد المكْتبات وإظهار حصاد المواهِب، وأذكر فى طليعة هؤلاء الدكتور محمد فتحى عبد المنعم، الشاب الضرير، الذى كان قد أُرسل فى بعثة إلى فرنسا؛ لكنه عاد منها قبل أن تكتمل؛ نتيجة لحرب السويس ١٩٥٦، وكان يشتعل ذكاء وطموحًا، وأذكر أنه رعى بحثًا لى حول "صقر قريش" قرابة نصف عام، يستمع إلى ما كتبته فى أوقات راحته بين الدروس، ويرسلنى إلى دار الكتب طلبًا للمزيد من القراءة والمراجعة حتى رضى عن صياغة البحث، ولم يكن داخلاً

حتى فى نشاط المقررات التى يدرسها لنا، واكتفيت بأن طويته بعد ذلك فى أوراقى معتزًا به.

ولقد شاءت الأقدار أن ألتقى بفتحى عبد المنعم فى باريس بعد انقطاع دام نحو خمسة عشر عامًا إثر هذه المحاولة؛ عندما أرسلتُ فى بعثة للدكتوراه، وكان أول ما حرصتُ عليه فى أيامى الأولى - على قلة معرفتى بالمدينة - أن أتلمس طريقى إلى الحى الرابع عشر حيث كان يقيم، وأن أطرق عليه الباب فيفتح لى - وهو ضَرير وحيد - ويتعرَّف إلى صوتى من الوهلة الأولى، ويعيد علىَّ تفاصيل أحداث كنت قد نسيتها، ويَسْعَدُ بى فى باريس ابنا وأسعد به أبًا وصديقًا وعالِمًا وشاعرًا، ومرشدًا يقود خطاى الأولى فى ردهات السربون ومكاتب العلماء وأسرار تذوق الجمال فى باريس، ويختطفه الموت بعد عودته من باريس إلى القاهرة فى أواخر ١٩٧٦، وهى العودة التى كنت قد كتبت إليه فيها قصيدة "المصباح القديم".

وفى الأزهر أيضًا تتلمذت على يد السيد أحمد صقر، المحقِّق المشهور، الذى شارك أحمد أمين فى تَحْقيق أبى حيان التوحيدى، وقدم للعربيَّة كتاب "الموازنة بين أبى تمام والبحترى" للآمدى، وغيره من أمَّهات كتب الأدب والحديث، وكان لهذا الأستاذ فضل علينا متعدِّد الجوانِب؛ فلقد كان يحث الطُّلاب المجتهِدين على أن يوجهوا جانبًا كبيرًا من قراءتهم إلى الإنتاج الأدبى والفكرى غير المقرر فى كتب الدراسة، وكان يسمى أولئك الذين يحرصون على الـمُذاكرة فى الكُتب المقررة وحدها "أهل الكتاب"، وهى عبارة تكتسب معنى خاصا لدى طُلاب الدراسات الدينية.

وكان السيد أحمد صقر يؤلف بين الطُّلاب الموهوبين، وهو الذى شكل "ثلاثيا" شعريًا من حامد طاهر، ومحمد حماسة عبد اللطيف، وأنا، وكنا فى فُصول متفرِّقة فى سنة دراسية واحِدة، ولم نكن متعارفين، فشَكَّل من بيننا هذه الرّابطة الأدبية التى نتج عنها فيما بعد ديوانان مشتركان من الشعر صدرا لنا، أولهما ديوان "ثلاثة ألحان مصرية" وقد صدر سنة ١٩٧٠ عن الهيئة المصرية العامة للتّأليف والنَّشر فى فترة رِئاسة الشاعر صلاح عبد الصبور لها، وكتب مقدمته الدكتور أحمد هيكل، وكنا نحن الثّلاثة وقتها معيدين بالكلية، والديوان الثانى صدر لنا بعنوان "نافذة فى جدار الصمت" سنة ١٩٧٥، عن مكتبة الشباب بالقاهرة، وكتب مقدمته الدكتور محمود الربيعى، وكنا وقتها مدرسين مساعدين فى الجامعة، وكان اثنان منا، حامد طاهر وأنا، قد سافرا فى بعثة إلى فرنسا لدراسة الدكتوراه.

ومن مَظاهر العناية التى أحاطنا بها السيد أحمد صقر ونحن فى المرحلة الثانوية أنه وعدنا ـ نحن الثلاثة ـ أن يكافئنا بزيارة العقاد إذا نحن أحسنا العمل والقراءة، وأظهرنا أننا أهل لحضور ذلك المجلس الأدبى الرفيع، وزادت الحميا الأدبية فى أنفسنا اشتعالا، وعندما اقترب الموعد، تأهبنا بقصائد ملائمة لتحية "الأستاذ"، وفى يوم الجمعة الموعود أحسسنا بالهيبة ونحن ندلف إلى الندوة التى يعقدها العقاد فى بيته، وقدَّمنا أستاذنا إلى العقاد، وأنشدنا قصائدنا، وأذكر أن مطلع قصيدتى كان:

الشِّعر يَرْكَعُ فى ربُوع بلادى ... مُتَبَتلاً لأمِيرِهِ العَقّادِ
والنثر شارَكَهُ التَّحِيَّة طائعًا ... فتجاوبا فى ساحة الإنْشادِ

وقد ضاعت بين عشرات القصائد التى كتبتها فى مرحلة ما قبل الجامعة ولم أحتفظ بأىٍّ منها، وقد صافحنا العقاد وأومأ إلى عامر العقاد فأخذ نُسخ القصائد، ثم أوصانا بأن نعرف لأستاذنا السيد أحمد صقر قدره، وأن نكمل دراستنا فى دار العلوم.

لم تكن تنمية الرّوح الأدبيَّة والشعرية خلال هذه الفترة تأتى من داخل قاعات الدَّرس فحسب، وإنما كانت المنتديات الأدبية فى القاهرة فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات مصدر تثقيف ومُتْعة وتنوير لنا. كنّا نُقيم فى حى الأزهر الفقير، قريبًا من فصول الدِّراسة، وكانت الندوات تعقد فى وسط المدينة، فى جمعية الشبان المسلمين أو جمعية الشُّبان المسيحية أو الغرفة التِّجارية، ولم يكن فى حساب ميزانياتنا المتواضعة أجور الانتقال فى المواصلات العامة فضلاً عن الخاصة من حضن المقطم إلى وسط المدينة، ولم يكن أمامنا إلا متعة المشى، نتأهب للندوة قبل موعدها بساعة أو ساعتين، ونَخْترق الطريق فى شَكْل جماعة تتماسَك كيلا يتوه أحد أفرادها، وربما أحسسنا بالغُرْبة فى المرات الأولى التى كنا نَجتاز فيها مَيْدان العَتبة الخَضْراء والأوبرا والشَّوارع التجاريَّة الكبرى بأضوائِها غير المعْهودة فى الدرّاسة والجماليَّة والعُطوف، ولكننا نعود فى نِهاية الندوة منتَشين بما سمعنا من محاضرات وقصائد، وكان يتألق من بين الشعراء فى ذلك الوقت، ملك عبد العزيز، ومحمود حسن إسماعيل، وعلى الجندى، ومحمود عماد، وعبد الله شمس الدين، وفاروق شوشة ومحمد إبراهيم أبو سنة، ومحمد العزب، وروحية القلينى، ومحمد بدر الدين، وكان حوار هذه الندوات يفتح عيوننا على ما تخرجه المطابع وتثيره الصحافة الأدبية.

وعرفنا طريقنا إلى المكتبات العامة وعلى رأسها دار الكتب فى باب الخلق، التى كان يحس المرء وهو يرتقى درجات سلالمها العالية العريضة أنه يرتقى حقيقة إلى عالم متميز. وعندما عرفنا طريق شراء الكتب، كانت الميزانية المتواضعة تساعدنا على الوصول بالكاد إلى سور الأزبكية وسور الأزهر، وكنا نجد هُناك روائعَ المؤلفات والمترجمات بأسعار معقولة. وأذكر أن المرة الأولى التى دخلتُ فيها فى مغامرة شراء مجموعة من الكتب الجديدة القيمة كانت فى سنة ١٩٦٥، وكنت طالبًا بالجامعة عندما صدرت طبعة مصورة عن دار الكتب للأغانى وصبح الأعشى والنجوم الزاهرة وعيون الأخبار ونهاية الأرب مرة واحدة، وكانت فى مجملها تشكل نحو ستين مجلدًا، كان ثمن المجلد عشرين قرشًا، ولم يكن من الميْسور آنذاك تدبير اثنى عشر جنيهًا مرَّة واحدة، فاشتركنا فى "جمعية" مع أصدقائِنا المهتمين حتى نُدبِّر ذلك المبلغ الضَّخم.!

ثم كانت دار العلوم، وكان حلمُها قد نَما معى منذ بدايات المرحلة الثانوية، حين كان الحوار يدور فى نفسى بين خيارات متعددة تطرحها طبيعة الدِّراسة فى الأزهر، ثم حُسم لِصالِح الأدب والشعر، كان صوت إبراهيم سلامة يأتى من خلال المذياع فى أحاديث السهرة، أو فى الصباح الباكر بنغمته الجميلة وأناقته وطلاقته، وكان صوت محمد غنيمى هلال فى حواراته الثقافية فى الإذاعة والصحافة؛ قد دفعانى إلى أن أتلمس كتب دار العلوم عند صديق من أبناء قريتنا هو عصمت عقل الذى كان قد سبقنى إليها بعدة سنوات، وحين قرأت فى إحدى عطلات الصيف كتاب "ليلى والمجنون فى الأدبين العربى والفارسى"

لغنيمى هلال، أخذت أتعرف على بقية علماء دار العلوم، أحمد بدوى وعلى الجندى وإبراهيم أنيس وأحمد هيكل وعبد الحكيم بلبع، حتى إذا حانت لحظة دخول الجامعة دخلت إلى المكان الذى لم أشعر فيه بالاغتراب، وكان معى فى الدفعة نفسها صديقاى حامد طاهر ومحمد حماسة، وكان معنا حلم الشعر الذى حملنا إلى المناخ الملائم له، ومنذ الأيام الأولى التحقنا بجماعة الشِّعر فى الكلية التى كانت تعقد ندوتها الأسبوعية؛ فتعرض فيها أعمال الشُّعراء من الطُّلاب، ويتولى نقدها وتحليلها المعيدون والأساتذة، وللمرة الأولى تجسد أمامنا معنى نَقد الشِّعر الجاد والهادف والقاسى أحيانًا، وأدركنا أن بعض جوانب الشعر الخطابيَّة الرّنانة التى كانت تستهوينا فى ندوات "الشبان المسلمين" لا يمكنها الصمود أما التَّحليل الدقيق، وعندما قال أحد قدامى الْمُعيدين وهو يعلق على قَصيدة لى" "هنالك عوامل كَثيرة ساعدت على فَشَل الشّاعر! "كاد قلبى يَنْخلع من بين ضُلوعى، ولكننى تماسكت لكى أتعلَّم الخطو على الطَّريق الصَّحيح، ولم تمض السنة الأولى حتى كان ثلاثتنا (حامد طاهر وحماسة وأنا) نتصدَّر جَماعة الشِّعر، واختارونى لكى أكون مسئولاً عن نَشاط الجماعة، فعمق ذلك من صلِتى بالشعراء داخِل الكلية وخارجَها.

وكنا فى مهرجاناتنا نصف السنوية ندعو صلاح عبد الصبور ونزار قبانى وصالح جودت ومحمد الفيتورى وأحمد عبد المعطى حجازى وأمل دنقل وملك عبد العزيز، إلى جانب شعراء الكلية على الجندى ومحمود حسن إسماعيل وأحمد مخيمر وأحمد هيكل وفاروق شوشة ومحمد فتوح أحمد وإسماعيل الصيفى وأنس داود وسعد مصلوح

والحسانى عبد الله، وبدأت قصائدنا ـ نحن الثلاثة ـ تعرف طريقها إلى مجلة الشّعر والمجلات الأدبية الأخرى فى الستينيات، وبدأنا نحصد جوائز الشِّعر فى المسابقات التى كان يقيمها المجلس الأعلى للفنون والآداب للشُّعراء الشُّبان ومسابقات شعراء شباب الجامعة، ونشترك فى الندوات الشعرية التى تقام فى القاهرة وتتردَّد أسماؤنا فى الصِّحافة الأدبيَّة. وفى هذا المناخ تم تجميع ديوان شِعرنا الأوّل "ثلاثة ألْحان مصرية" والذى صدر فيما بعد عن الهيئة العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧٠، وكتب الدكتور أحمد هيكل مقدمة تحليلية للديوان ولاتجاهنا الشعرى آنذاك، وأشار فيه إلى الخصائص الفنية لهذا الاتجاه مركِّزًا على فكرة الإفلات من "الانغلاق داخل سجون الألغاز والتَّخبُّط على ظلمات الانبهام. كما يحدث لكثير من نتاج شعراء الشباب (آنذاك)، وإنما هو شعر يتجه إلى المتلقى مسفرًا فى غير تَعرٍّ، واضحًا فى غير مباشرة، لأن الأضواء التى تحيطه أضواء غير باهِرة ولا مرهقة، فهى أشبه شىء بضوء القمر".

وفى منتَصف سَنوات دراستِنا بالجامِعة عاد إلينا فى دار العلوم من جامعات أوربا الدكاترة الطّاهر مكى وعبد الحكيم حسان ومحمود الرَّبيعى وحمدى السكّوت والسعيد بدوى وأحمد مختار؛ فضخوا فى العروق كثيرًا من الدماء الجديدة، وساعدوا أرواحنا على التحليق فى آفاق لا تحد، وتولى الدكتور محمود الربيعى الإشراف على النشاط الثقافى فزاد اقترابنا منه، وكثر حوارنا معه، وساعدنا فى الارتفاع بالتَّلمذة إلى مرتبة الصَّداقة فى مرحلة مبكرة، وتجسَّدت لنا فى شخصيته "الشّاعرية العمليَّة" فرأينا الرقة التى لا تمنع الصّلابة من

الظهور وقت اللُّزوم، والمجاملة التى تشف عن الصرَّاحة، وتذوق الجمال عندما لا يكتفى بالوقوف عند حدود البناء اللغوى، وإنما يتجاوزه إلى ألوان الفنون الأخرى فى الرسم والموسيقى والغناء، حديثًا عنها أو حتى محاولة للمسها بالحواس أحيانًا، وأذكر أننا كنا نَلْتَقى - فيما نلتقى - على حب أم كلثوم، وعندما ولدت "الأطلال" كنا نتحاور حول النَّص والموسيقى والأداء، ونترنم أحيانًا فى بعض أوقات الفراغ بمقاطع منها، وقد كتب الدكتور الربيعى فيما بعد، تحليلا نقديًا مستفيضًا حولها، وبعد نحو عشرين عامًا من لقائنا كتب الدُّكتور الربيعى فى سيرته الذاتيَّة: "فى الخمسين عرفت طريقى" يقول:

"وخلال الفترة الأولى من سنوات عملى فى دار العلوم، تعرفت على ثلاثة طُلاب، سيصبح لهم أثر فى حياتى، هم حامد طاهر وأحمد درويش ومحمد حماسة، كنت أدرِّس لهم الأدب المقارن فى السنة الثالثة وكانوا - ضمن آخرين - يكونون جَماعة الشعر فى الكلِّية وكنت أشرف على نشاطها؛ فبدأت علاقتنا تنمو فى قاعات الدرس وفى الْمَجال الثَّقافى، وسرعان ما تطوَّرت إلى معرفة وطيدة ثم إلى صداقة حميمة، كان هؤلاء الطُّلاب الثلاثة أول طلاب دخلوا بيتى فى مصر الجديدة، وكنت ومازلت أحبّهم وأقدِّرهم، لأننى شعرت بالتجاوب الطبيعى بينى وبينهم، وكنت أحن إلى أن يكون لى إخوة أصغر منى وقد وجدت ذلك فيهم.. وأتوا ثلاثتهم فى مقدمة الدفعة، فعُيِّنوا معيدين فى الكُلِّية وبقينا متلازمين".

وقد اشتد هذا التلازم ما بين تخرجنا فى سنة ١٩٦٧ وسفرنا إلى البعثة فى اواخر سنة ١٩٧٤، وصدر لنا فى أواخر هذه الفترة، ديوان

شعر ثان هو "نافذة فى جدار الصمت"، وكتب الدكتور الربيعى مقدمته النقدية.

ثم جاءت سنوات البعثة إلى باريس (١٩٧٤ -١٩٨٢) فكانت سنوات عميقة التأثير فى تكوينى العِلمىّ والشِّعرى، ردتنى إلى حالة من الدَّهشة الأولى، حين تغيَّر الكون الذى كان مستقرًّا فى عيونى أكاد أعرف فيه موضعى كمدرِّس مساعد فى الجامعة على وشك الحصول على الدكتوراه؛ يلتف حوله أحيانًا تلاميذه، ويقرأُ له بعض الذين يتابعون المجلاّت الأدبيَّة والدَّواوين الصادرة، ويكاد يكتَسِب بعض الثِّقة فى نفسه اجتماعيًا وأدبيًا؛ فإذا بهذا كله تذروه الرياح أو تكاد، أو على الأقل تضعه بين قوسين، كما قال لى أندريه ميكيل المستشرق الشَّهير الذى أشرف على دراستى، ووجدت كثيرًا من الْمَشاعر تعود إلى طفولتها، وكثيرًا مما كنت أظنه حقائق يتحول إلى علامات استفهام، وتوُلد حالة الدَّهشة التى قال عنها كولريدج إنها مُلازِمة للشّاعريَّة.

وتتحوَّل باريس إلى ميلاد جديد، أستسلم لجماله ودهشته حينًا، ولكننى أحاول بعد فترة أن أحدث التوازن بين مهمتى كدارس للدكتوراه فى النقد الأدبى والأدب المقارن، ومحب للشِّعر على وجه خاص، وقد اخترت رسالتى فى مَجال المقارنَة بين الشِّعر العربى والفَرَنْسى، وظل التوازن قائمًا فيما أعتقد بين مُحاضَرات اللُّغة والحَضارة والأحاديث الْمُمتعة على هامشها، وبين قاعات الكوليج دى فرانسْ وعُروض الكوميدى فرانسيز، وصرامة الجُلوس إلى مقاعد

المكتبة الوطنية، وحرية الحركة أحيانًا فى قلب الحياة الجَميلة فى الحى اللاّتينى أو مساحة الخُضْرة الشاسعة فى وسط باريس أو ضواحيها، أو الأحاديث المتوهِّجة على شاطئ السين، أو لمسات الشِّعر التى تنبتُ فى كل مَكان ابتداءً من أنْفاق المترو النَّظيفة إلى أرْصِفة شَوارع الحى العَتيق بجوار السُّربون، إلى ندوات الشعر التى تقام فى صالات عرض اللَّوحات، أو مداخل الفنادق أو المَقاهى، وكان أحد الأساتذة قد حذرنا من شدة الحرص على الاقتراب من الكتب وحدها لكيلا نصير مثل "فئران المكتبات التى تستهويها رائحة الورق ورطَوبة الأقبية"، وقد استهوتنى نصيحته كثيرا ولا أدرى إلى أى مدى نجحت فى اتباعها.

وعندما أتيح لى أن أقرأ الشِّعر الفرنسى شدَّتنى روائعه، ولم تتوقف قراءتى عند الشِّعر المعاصر، فقد رأيت فى شِعر القرن التّاسِع عشر روائع ربما كان كثير منها أقرب إلى طَبيعة المَرحلة الحضاريَّة التى نعيشها من كثير مما يكتب اليوم ويعبر عن عالم يختلف قليلاً عن عالمنا.

ولقد ترجمت بعض القَصائد الفرنسية لفيكتور هيجو وجاك بريفير، وعندما حرصت على أن تولدَ التَّرجمة مكسوة بمسحة من النَّغم العَربى، دون أن يكون ذلك على حساب دِقَّة التَّرجمة، تركت هذه القصائد انطباعًا لدى كَثير من طَبقات القراء، وأذكر على وجه خاص قصيدة جاك بريفير "لكى ترسم لوحة لعصفور" التى كان لها صدى واسع، حتى إنها عندما بثها التليفزيون المصرى مرة، قال لى أحد أبناء قريتنا من الفلاحين: "لقد تمتعت بهذه القصيدة وأعجبتنى حكاية العصفور!".

٢

وقد دفعنى حب الشعر الفرنسى كذلك إلى أن أترجم إلى العربيَّة أهمَّ كِتابين صدرا بالفرنسية عن الشعر فى ربع القرن الأخير، وهما: "بناء لغة الشعر" و "اللُّغة العُليا.. النَّظرية الشعريَّة"، وهما للنّاقد الفرنسى المعاصر "جون كوين"، وقد كان حصاد الفترة الباريسية فى حياتى من الشعر غزيرًا، وأعتقد أنه كان مختلف المذاق، وقد نُشر كثير من قصائد تلك الفترة فى الصحف والمجلات العربية.

أما "الفترة العمانية: الأولى التى تمتد فى حياتى من ١٩٨٦ إلى ١٩٩٢ فقد كانت فَترة خِصْبة ذات مذاق خاصّ، كنت قد أعرت للعمل فى جامعة السُّلطان قابوس خلال هذه الفترة، وسعدت بالتعرُّف عن قرب إلى خامة هذا الشَّعب الدَّمث المحب للعلم والأدب والشعر على وجه خاص، حتى إنهم ليردِّدون المثل القديم: "فى عمان وراء كل حجر شاعر"، واشتدَّت صِلتى بالمجتمع خارج أسوار الجامعة وأحببت الناس وأظن أنهم أحبّونى، ولم يتوقف الحوار بيننا أبدًا، حتى بعد أن عدت إلى القاهرة ١٩٩٢، وجزء من هذا الحوار يتمثل فى حديث يومى قدمته عن الشِّعر والثقافة من إذاعة عُمان أكثر من عشر سنوات دون انقطاع، وهو حديث أتاح لى أولاً فرصة إعادة التعرف على كثير من جوانب خريطة الشعر العربى، وفرصة إعادة تقديمها للمتلقى العادى غير المتخصِّص، وكنت عندما أذهب إلى عُمان من حين إلى حين، يظن كثير من الناس أننى مازلت مقيمًا بينهم، ربما بسبب هذا الحديث اليومىّ عن الشعر، وأسعد بالحوار مع من ألتقى بهم - وهم من غير المتخصصين غالبًا - اعتراض عن شىء استوقفهم عند الحديث عن المتنبى أو أبى العلاء أو شوقى أو أبى مسلم البهلانى،

ثم قدر لى أن أعود إلى عمان عميدًا لكلية الآداب فزاد توهج الحوار الذى لم ينقطع أبدًا منذ ابتدأ حتى بعد أن عدت إلى جامعة القاهرة لاستئناف عملى بها سنة ٢٠٠٣.

وكما أن صلتى بالشعر، حوارًا معه، لم تتوقف طوال هذه الفترة، فإن صِلته بى مناوشة لى، واستِجابة للحظات الخاصة التى تجتاحنى لم تتوقف كذلك.

إن الرجفة الشِّعرية التى اعترتنى فى صباى المبكِّر، وأخذت شَكْل الموْجة التى كادت أن تكون هادِرة فى شَبابى، قد تفتَّت منها دون شك، قَدْر كَبير فى مرحلة ما بعد الشَّباب، تفتت فى "نَقْد الشِّعر" الذى عنيت به كثيرًا وكاد أن يستحوذ على الجزء الأكبر من نشاطى النقدى، وحصلت فيه على أكثر من جائزة للإبداع على مستوى نقاد العالم العربى، وتفتت فى رؤيتى للأجناس الفنية الأدبَّية الأخرى التى أحرص غالبًا على أن أدلف إليها من جانبها الشعرى، الذى لا يكون الفن فنًا والأدب أدبًا فى غيابه. وتفتت أيضًا - فيما أظن - فى بعض سلوكى العملى، ولا أزكى نفسى فقد يكون هذا من نِقاط الضَّعف لا من نقاط القوة، ولكن هذه الموجة، ما زالت تُعاودنى بين الحين والحين فى شكلها الشِّعرى الخالص، وأنا أتردد كثيرًا، قبل أن أضم كفّى وأحكم ما بين أصابعى، وأحاول أن أقدِّم منها حسوة صغيرة، أعرف أنها قد تكون ضَئيلة إلى جانب الأنْهار العَذْبة التى يفيض بها الشعر العربى فى كل العصور.

أحمد درويش

الجيزة فى ٢٠٠٥/٦/٤

تنويعات على لحن القمر

كُـلُّ الصبَايا إذا أشْـرَقتِ تنْحسَـرُ

يـا أيُّهـا الرشـأ المـياسُ يـا قَمَـرُ

هُـنَّ الـنجومُ ولكـن الـنجوم إذا

تَـلالأ الـبدرُ، لا عـينٌ ولا أثـرُ

تلُـوح مـنك شـعاعاتٌ مـنغَّمةٌ

يحارُ فـى سـحرهن السـمعُ والبصـرُ

وتَمـلأ الـنفسَ صَـفْوًا لا شـبيه لـه

الأرضُ مخضـرةٌ والغَـيْثُ منْهمـرُ

والـروحُ تَخْفِـق إذْ تلقـاكِ هائمـةً

كأنهـا الفجـرُ يسـعى نَحْـوَه السَّحرُ

يَظـلُّ طـيفُك مـلءَ الـنفس يمـنحها

أُنـسَ الأحـبة إنْ غابـوا وإن حَضـروا

إذا التقيـنا تلاقـى الـبوحُ واخـتلطتْ

أركانُـه بَيْنـنا، فالمبـتدَا خبَـرُ

والحَكْى لَـمْحٌ وأطـرافُ الحـديث لُغـىً

مُلـــوكها نحـــنُ، لا قَـــيْس ولا مُضَـــرُ

يلــتفُ خـيطُ الحكَايـا حـيَن نَنْســجُها

يلــتفُ فــى الغاَبــة الُعذريـــةِ الشَّــجرُ

نـتـوه فـيهـا، يَلَـذ التـيهُ، لَـيس لـنا

مـن سِـحْره مهـربٌ، مِـنْ طُـوله ضـجرُ

مِـنْ لمسةٍ نَنْتشـى، مـن ضحكةٍ صدرت

عـنْ منـبع الصـفو، عِطْرُ الحُـبِ ينتشـرُ

مـــنْ دَمعـــة عـــندما نعلـــو إلى قِمَـــم

لم يَـــرْقها قَبلـــنا فـــى ظنـــنا بشـــر

كـيفَ الـرجوعُ؟ وأرضُ العـالمين حَصـىً

شـــــوكِيةٌ، وحصـــــانا كلـــــها دررُ

أفئـدة الطـير

كان العشاقُ...

يصوغون بماء الورد وسائلَهم

حين يهيمون ،

أو تندسُ بطيّاتِ الصفحات

أوراقُ الزهر

أو تتجمَلُ بعض الكلماتِ بأبياتِ الشعرِ

يرحل بعض العشاق إلى المجنون

أو يبحر فى شعر نزار ويبحث عن حرف موزون

* * *

حين تمّر السنوات ؛

يصبحُ ماء الوردِ بُقَعا فوق الصفحات

وتغدو أوراقُ الزهرِ مثلَ تجاعيد عجوزٍ

كانت تكسو الجلدَ بِمَسْحوقٍ أحمر

وتفرُ عصافير الأبيات الشعرية

نحو الأوكار الأولى

ويصير المجنون من العقلاء

وتُصنَّفُ أبيات نزار...

أحْرُف جر.. أو أفْعالًا.. أوْ أسماء

* * *

حين تخطين رسائلك إلىَّ

لا شيء سوى صوتِ الأنفاسْ

وصدق الإحساسْ

وزلزلة القلبْ

لا شيء سوى إيقاعِ الحبْ

لا شيء سوى كلماتٍ

لا تأخذُ من كلماتِ اللغة المأهولة

إلا شكلَ الحرف.. ميزان الصرف.. نسج الموسيقى

لكن تمنحها دمها

هى أفئدةُ الطير

"فَخُذْ كوكبةً منهنّ فَصرْهُنَّ إليك"

ثم انفخ فيهن نسيم الحب

ثم ادْعُهَن.. يأتينكَ سعيا

وأعلم أن القلب

يبثُّ شرايين الكلمة روحا

لا يعيا.

* * *

هى أفئدةُ الطير

يَعْمرن جبَال الكون طيورا

ونباتًا وزُهورا

لَمْ تعشب فى دِيوان المجنون...

ولا كلماتِ نزار

شيئًا يختلف عَن الجنَّة والنارِ

عصفورًا لا يرتَدُّ إلى وَكْر آخر

لغةً ما لاَكتْها الألسنُ من قبل...

لا يعرفُها القاموسُ

لا ينكرها القاموسُ

نجما لا يخبو لا تلبس ثوب مجازٍ متجمد.

دفئا لا يبرد.

مَدَدا لا ينفد.

كأن البحر مدادًا للكلمات

الطوفـــــان

مـــنح الحُسْـــن ســـرَّه واصـــطفاك

فتجلّـــى الـــبهاءُ فـــى مـــرآكِ

الجمـــالُ الـــذى ترامـــى ســـخيًا

وعصـــيًّا علـــى خـــيوط الشـــباك

كلمـــا راودَ الكـــلاُم الخفَايـــا

يَجْتلـــيها ورامَ نَصْـــب الشِّـــراكِ

أفلـــتتْ مـــنه كـــانفلاتِ المـــيا

هِ فى البحرِ، وسَبْح الضياءِ فى الأفْلاكِ

والـــذكاءُ الـــوقّادُ يَختْـــرق الحُجـــبَ

فتـــزدانُ بالـــنجومِ سَـــماكِ

تعكـــسُ العـــينُ وَمضـــةَ الـــنَّجم

والثغْـــرُ تـــلالا بـــنوره وســـناكِ

والهَـــوى مـــوجُهُ عتـــى وعـــذْبٌ

والنشـــاوَى مـــا بَـــيْنَ راضٍ وبـــاكِ

وســـفينى مُجَـــنَّح فَـــوْقَ رمـــل

ومَـــدى الأفْـــقِ غـــائمُ الإدراكِ

جئتِ فاجتاحت النسائمُ والطوفُان

وامـــــتد للشـــــراعِ يـــــداك

ورأيـتُ (الجـوديَّ) فـى الأُفـقِ النائـى

محـــــوطا بغابـــــة الأشـــــواكِ

غـــيرَ أن الـــوُرود تَكْســـو حَـــناياه

وعِطْـــرُ الـــوُرود فـــى الأفْـــق زاكِ

كـــنتُ قـــربَ الأصـــيل يـــوم التقَيـــنا

والضُّـحى الغـضُّ كـانَ فـى يُمـناك

وسـبَحنا وفـى رضـابك مـاءُ الخُلـد

يَـــرْوى ظَمـــا الأصـــيل الشـــاكى

فـــإذا الصـــبْح والغـــروبُ امتـــزاجٌ

عَـــزمةُ الجـــن فـــى هـــدوء المـــلاكِ

وأذبْـــنا الـــزمانَ مِـــنْ بَـــيْنِ أيْديـــنا

اســـترحْنا مـــن دَورْة الأفـــلاكِ

وحســـونا المـــاءَ المقـــدسَ للحُـــبِ

عَـــزَفنا الألْحـــان فَـــوقَ رُبـــاكِ

كـم غَرسـنا النخـيلَ والمـوزَ والـرُّمان

قَـــــرَّتْ بجَنْــــيها عيــــناكِ

وانصـــهرنًا قلــبًا وَعقْـــلاً وروحًــا

وأناخـــت قوافلـــى فـــى حمـــاكِ

غريبـــان

لا تنكـــرى إنَّـــا غـــريبان

أنـــا قـــد مَللِـــتُ طـــلاء أحزانـــى

لا تنكـــرى .. فحديثـــنا مـــزق

مشـــدودة فـــى خيطِـــنا الوانـــى

لا تُنكـــرى .. فثيابـــنا رُقَـــعٌ

أصـــباغُها تلفـــيقُ ألْـــوان

كـــلُّ الـــذى قُلـــناه مُخْـــتلَق

وحـــديثُ تَزوْيـــر وبُهـــتان

كـــلُّ الّـــذى غرَســـت أصـــابعُنا

زرعٌ بـــوادٍ غـــير ريَّـــان

الـــرملُ تُـــربتهُ العقـــيم

وصَـخْرُهُ متناثـر فـى أضـلع القـيعان

عبـثًا .. نحـاول أن نمـد جـذوره

أو أن نـبثُّ الـروحَ فـى الأغصـان

عبثا .. نحاول أن نقول .. خديعةٌ

هـا إنَّها مخضرةُ الألوانِ

يـا ما ظلمنا الريح .. قلنا إنها

تُسْفى فتُطفى خُضْرَةَ العيدانِ

يا ما ظلمنا السُّحْبَ .. قلنا إنها

بَخِلت بوافر مائِها الهتَّان

أو لملمتْ دون الهجيرِ ظلالهَا

يا قَسْوةَ الإحراقِ دونَ حنانِ

يا ما ظلمنا كلَّ شىء حولَنا

والظالمانِ هنا .. ويْختبئان

رأساهما فى الرَّمل.. فى أيْديهما

نُذُر الأسَى ومعاولُ الحِرمان

لا يا معذبتى .. فقد طال المدى

والأرضُ لم تُنبت سوَى الأحزانِ

ها أنه قَدْ مرَّ عامٌ .. طِفْلُنا

هَزِلُ الملامَح شاحبُ البنيانِ

تبدو عليه علائمٌ مذعورةٌ

طفلٌ يتيمٌ ماله أبوانِ

السـوسُ ينخُـر عَظْمـه .. مـاذا تُـرى

ســيكونُ لَــوْ مــرَّت بــه ســنتانِ

قــاسٍ عليــنا أنْ نقــولَ حقــيقة

الهجـرُ أخْنَــى مــن لِقانــا الجَانــى

قــاسٍ عليـنا.. أن نَقَــول حقــيقة

إنــــا بــــرَغْمَينا لُمغْتربــــانِ

لا تنكــرى .. .. فالحــزنُ يملــؤنا

وأنــا مللــت طــلاء أحزانــى

"كاوبوى فى وادى الإنسان"
خمس لوحات عن الحرب

(١)

كاوبوى،

تَرْكبُ ظهْرَ جوادٍ أرعنَ

تحملُ فى يَدكَ الأنشوطةَ

والحبلَ المُلْتف..

تُقَطِّبُ بين العينين..

تَرْمى فى كُلِّ صَلَفٍ

فَتشَلُّ خُطى الثَّورِ الجَامح

هُوَ مِثْلُك، لكنْ ليستْ فى يدهِ أنشوطة

تضحكُ ملءَ الشِّدقَين

لمْ تقَع القُبَّعَةُ عَلى الكتفَيْنْ

ولمْ يَلحق بالسَّرج تلفْ

وتواصل لُعْبَتَك بكلِ صلفْ.

(٢)

كاوبوى،
قُطعان البقرِ تَمرُّ أمامَ العينين.
عَيْنٌ فوقَ العشْب، وعينٌ فوق الضِّرعين
يَنكفى الرَّاسْ،
وتختلطُ الأنفاسْ
على العُشْب الأَخْضَرْ
كى تحلبَ أكْثر
وإذا ما جف الضرْعُ، امتنعَ العُشْب
ديسَتْ تحْتَ القَدمينْ.

(٣)

كاوبوى،
تمتد بك الأحلامُ سهولا فسهولا
كيف تصير القطعانُ حقولا
كيف تَمُدُّ الأنشوطة
لحقولِ الجيرانِ الضُّعفاء
تحبسُ عنْها المَاء
فتهوى العيدانُ ذبولا

كيف تلف الأنشوطةُ
جسدَ عجوزٍ يتجرأ
تَسْحَله الخيلُ على العُشْبِ الممتدِ قَتيلا
وتضحكُ ملءَ الشِّدْقَين
لمَ تقع القبعَةُ على الكتفين
وإنْ كان السرجُ قد اهتزّ قليلا.

(٤)

كاوبوى،
حين يجىء الإمساءْ
وتدرك أنَّ قطيعك
قد أدْركَهُ الإعياءْ
تذهبُ للحانة كى تَتجرعُ بعضَ الأقداحْ،
وعلى الجنبينِ
على الكتفينِ
على الرجلينِ
على الأطرافِ سلاحْ.
وتنظر مُحْمَرَّ العينين
لأجلافٍ مثلك

تسكنهم نفسُ الأحلام

كيف يكونُ هناك سلام؟!

إما أن تُحْمَى القطعان

أو تذهبَ عنك القطعانْ

وتقررُ أن تحميَها

حتى لو صِرْتَ حليفا للشَّيطان.

تتجرعُ بعضَ الأقداح

ويقعقع فى أرجاءِ الحانة

صوتُ سلاح.

(٥)

كاوبوى،

مررتَ بأطرافِ البصرة

أو أحياء النَّجفِ الأشرف

ومررت على شاطئ دجلة

جئت إلى بغداد

لم تجد القطعان هى القطعان

ولا رُوَّادَ الحانةِ

هم نفسُ الروَّاد

قد أخطأتَ طريقَك

رغْم جمُوح المُهر الأَزْعن

رَغْم الأنشوطة والتدبيرِ المُتْقَن

ليس هنا.. وادى القطعان

نحن هنا.. وادى الإنسانْ.

❊ ❊ ❊

(١) لكى ترسم لوحة عصفور

للشاعر "جاك بريفير"

أرسْم قفَصًا مفتَوح الأبواب

ثُمَّ ارسمْ أشياءَ بسيطة،

أشياءَ صَغيرة،

مما يعشقُه العُصفور.

علّق لَوْحتك المرسومَةَ

فى إحدى الغابات

واختر أجمل أفرعها.. كى يقف العصفور عليها؛

واخْتَف خَلْف الشجرة

لا تَهْمس.. لا تَتَحركْ

وَترقَّبْ حتَّى يَأتى العصفور

وتمهل لا تَتعجل

أحيانا.. قَدْ يأتى العصفور سريعا

لكن قد تمضى السنوات.. قبْل مجئ العصفور

لا تيأس، وترقب

فمجئ العصفور سريعًا

لا يعْنى أن اللوحةَ حُلْوةْ
ومجئُ العصفور بطيئا
لا يُنْقص مِنْ قَدْرِ اللوحة
حين يجئُ العصفورُ - إذا جاء -
راقبْ من أعْماق الصمت،
وتمهَّل حتى يلج العصفورُ إلى بَاب القفَص المرسوم
وعليك إذن أن تتقدم فى كل هدوء،
وتغلق بالفرشاةِ
بابَ القفص المرسوم
بعد قليل.. وبنفسِ الريشة
أزِل الأعمدةَ المرسومةَ فى القفَصِ عمُودًا بَعْد عمودْ،
ثم ارسم بعضَ نسيم طازج
وارسم بعضَ شعاعِ الشمس
وضجيجِ الحشراتِ الشجرية، حين تَهُب رياح الصيف،
وترقب.. حتّى يتغنى العصفور؛
فاذا ما قَرَّر أَنْ لا يَشْدو
كانت تلك عَلامةَ سوء
لم تُعْجبه اللّوحة،
أمّا إنْ غنّى

فعلامةُ حسنٍ
فى إمكانك أن تضَع التوقيع على اللوحةْ
وعليك إذن أن تتقدم فى كل هدوء
وتنزع واحدةً من ريش العصفور
وتكتب فى زاوية اللوحة :
أسمَ الفنان.

* * *

أغنية حزينة لإسحاق الموصلى

مشيْتُ مُثْقَلَ الخطى
لمجلس الرشيدِ،
مشيتُ موهَنَ القُوى
أحسستُ أن قلبىَ الحزين
أضعفُ من أن يَدْفع الدماء للوريد
شددتُ أوتارى / هيأت مزمارى / واخترتُ أشعارى
لكنّ طيفَ هاجس / يجوس فى الصدر / كلفحة النار

* * *

قال الرشيدْ:
ـ ومسحةٌ رقيقةٌ من الهموم
تعلو محياهُ ـ
(كأنَّماَ تجْتَمعُ الغيوم
على جَبين عاشقٍ يخَاف لحظةَ الفراقْ)
بالله يا إسحاقْ،
يا زينة العراقْ،
يا نسمةَ الموصلِ،

يا أرجوحة الجمالْ،
كان أبوك إبراهيم عندما يشْدو
تصفقُ الأمواج فى الفرات
تهتز أقْرع النخيل، تهتزُ ذؤاباتُ الشجر
تردد الأطيارُ فى الأوكارِ
با لله يا إسحاقْ،
هل تدرك الطير، عذوبةَ الغناء والأشعار؟
فقلت يا مولاى:
إن طيورَ بابل العتيقةْ
كان لها أجنحةٌ تعلو بها لقبةِ السماء
تسترقُ السمع وتحتسى شدوَ الملائكة
ثم تَعود للعراق
تودع فى قرارة النفوس أسرار الغناء
مسكونة بالسحر والشجن
حاملة نبض الزمن
ابتسم الرشيد وحنت النفس
لرنة النشيد ورحتُ أشدو:
- والصدى الهادئ من حولى يعيد -
ألا قاتل اللهُ الحمامةَ غُدوة
على الغُصن ماذا هيَّجت حين غَنَّتِ

تغنتّ بصوتٍ أعجمـيٍ فهيجـت

من الشوقِ، ما كانت ضلوعى أجَنَّتِ

فلو قَطرتْ عينُ امرئ مِـن صبابـة

دَمـا، قطـرتْ عيـنى دَمًا فألمـتِ

قال الرشيد: يا أسحاق،

تمزج فى الكأس السرور

والشموخ والحزَن!

هل هذه طبيعةُ العراق؟

فقلت يا مولاى،

ينخلغ القلب

إذا روَيتُ

ما أولته من شجو هذه الحمامة؛

كأنها تنْذرُ بالقيامة

تُنذرُ بالنواح والعويل

والندامة

طيرًا أبابيلا

تصبُّ سجيلا

وبطنُ يأجوج

ملأى أهاويلا

قال الرشيد: فى زماننا؟

فقلت: فى أزمنة مخبوءة

قال الرشيد: لا تَخَفْ يا صاحبَ النبوءة
الجند فى أرْضِ السوادْ،
والعسكرُ الممتدِّ فى كلّ البلادْ
والعربُ الأشاوسُ الأمجادْ
لن يُسْلموا بغدادْ
وهل نسيتَ يا اسحاق،
أننا ننظرُ للغمامة المطيرة
تمر فوقنا مسرعةَ الخطى فَنْبتسم
فلتمطرِى حيثُ تشائينَ
فسوفَ يأتينا الخراجْ
فالمالُ فى أكفنا،
والعددُ الوفيرُ فى سيوفنا،
أصواتُنا غليظة الأوداج،
فهل تصير إن أتى هذا الزمان
خافتة مثل النقيق فى حظائر الدجاج؟!

* * *

قال الرشيد:
كان أبوك يا اسحاق،
عندما تشتد بى الغُمّة
ينشدنى
من شعر ذى الرُّمة:

خليلـيّ عُـوجا مـن صُـدور الـرواحل
بجَـرعاء حَـزوى، وإبكـيا فـى المـنازل
لعـل انحــدارَ الدمــع يُعقــب راحــةً
مـن الـوَجْد أو يَشْـفى نجـىّ الـبلابل

* * *

لملمتُ أحزانى،
ولم أشأ أن أخبر الرشيد؛
أنى سمعت فى النبوءة الحزينة
أن سيوفَ العُرْب لن تَكون يَوْمها من الحديد
وإنما منْ جُمْلة الزِّينة
ليست يمانية.. ليست نزارية
ولن يهاب حدَّها أحد
لأنها تزدان فى الأعياد والأفراح
ولا تعد من بواتر السلاح

* * *

ولم أشأ أن أخبرَ الرشيد
أنى سمعتُ فى النبوءةِ الحزينة
أن خيولَ الروم عندما تُجوس فى المدينةْ؛
تجتاح بَيتَ الحكمة القديم
سوفَ تَبثُّ الرَّوث فى قاعاته،

تدوسُ فى صحائفِ الذكرِ الحكيمِ ،
تعيث فى آياته ،
تحاول النشاب أن تغرِس فى حلوق الطير
فى السماء أَنَّةً حزينة

* * *

قال الرشيد : يا اسحاق ،
أعرف قسوة البلى
تَصْلى بها الدارُ
فغنّنا ما قال بشار

لعـــبدة دارٌ مـــا تكلمـــنا الـــدارُ
تلـوح مغانـــيها كمـــا لاح أســـطار
أســـائل أحجـــارا ونـــؤيا مهـــدما
وكيف يـرد القـولَ نـؤى وأحجـار؟!

غنيتُ حتى صفق الرشيد ،
وهبَّ واقفا ،
وحملقت عيناه
فى الأفق البعيد
وقال يا أسحاق ،
أصدقك النبوءة التى ورثتها
عن ألف جد

نبوءة صادقة مدى الأبد
فهذه الطير التى تلمس قبة السماء
لن تقف،
وذلك النبع الثرى فى جوف الفرات
لن يجف،
وهذه النخيل
سوف تداوى حرقة السعف
وهذه الأرض التى تحسبها هامدة
سترتجف.
ستهطل الأمطار فوق ظهرها
ويتمطى الزمنُ الغافى بكل ذرة من تُرْبها
ويصرخ التاريخ فى ضُلوعها
ساعتها سوف يعود يأجوج إلى أوكاره
وصوتك الشجى يا إسحاق،
يا أرجوحة الجمال فى العراق،
سوف يفك من إساره.

* * *

اللّمى

اللّمى فى الشّفةْ
غضة مُرهفةْ ،
كلّما أو مضتْ برقة خاطفة
أو مضت تجتلى
نجمة عاصفة ،
أو تبدَّت مع البسمة الراجفةْ
أو سرى خدْر الريب..
ما أضعفهْ.
عصفتْ بى حُميًّا هوى راعفةْ
أرجعتنى إلى لحظة سالفة
واستثارت بىَ..
المضغةَ الخائفةْ
رجفها فى الضلوع
هو العاطفةْ.

اللّمى فى الشّفة

غضةٌ مرهفةْ،

لا تجيد أحاديثنا..

المسرفهْ.

ذُقْ رضاب السحابِ؛

لكى تعرفهْ،

وتمتع بأنفاسه المترفةْ

رعشةُ الكهربا رعشة.

جارفةْ.

متعةُ البحر فى اللُّجةِ..

العاصفةْ.

لعيونٍ بأسراره..

عارفةٍ،

موعد البحرحان ولن أخلِفهْ.

* * *

أغنية حزينة لطائر المساء

عناكبُ الشمس على حدائق القناة
تخط آخِر السطور فى نهارها الطويل
والمُدُنُ التى تَمُور بالحياة
تغرق فى دوامة الصمت الملول
شطآنها خنادقُ يملؤها الثأرُ الجريح ،
وأنتَ يا طائرىَ المهاجرَ الوديع
تعبُر "سيناء" الأسيرة ،
فى رِحلة حزينةٍ مريرة ،
تَؤمُّها من شَرْقها لغربها ؛
كأنما تسعى لموكب المغيب
من قبل أن يغيب ؛
لتودع السر الذى حملته
من الثكالى والعيونِ المُتعَبة
ومن جمُوع الأمهات الداعياتِ

والفتيات الباكياتِ

تحتَ سُقوف دُورنا المغْتَصبة ؛

لتطلع الشمس به على غدٍ جريح

يحفزُ للثأر جموعَنا ،

جراحنا المُرْتقبة.

يا طائرى ،

ماذا هناك فى جوانب الفيافى العابسة ،

فإننى لمحتُ بازيًّا يطير ،

يحتسى من قطرات يابسةْ

فأى جُثَّة حسا من دمها ،

وأى لحم غاص فيه مخلبه

من بعد ما عفّنه توهج النهار

وأنتَ يا طائرى المهاجرَ الوديع

لمحتُ دمعةً بدت فى عَينك المفزَّعة

فأىُّ دار فى ضواحى "غَزة" الرقيقة

لمحت فيها وَاحدا من الكلاب الجائعة

يمرغ الزهرةَ فى طين الحديقة ،

وألمح الذلة فى جناحك الطويل ،

فأى حاخام رأيته،

يدوس بالهوان أرض المسجد الجليل،

وألمح اللعنة فوق جيلنا.. لأنه باع إلههَ بلا ثمن

يا طائرى الحبيب،

أسرع،

فإن شمسنا قد أوشكت أن تدرك المغيب.

❊ ❊ ❊

عرسٌ فى "بنت جُبَيْل"(*)

أجملُ عُرس تبصُره العَيْنان

عُرس فى لَبنان

فى(بِنْت جبيلْ)

لمعَ السيفُ ورقَص الخَيْلْ،

واهتزت أرجاء الأرض

على ايقاع الدْبكَة،

والتحَم الزندُ معَ الزِّند،

تهاوتْ ظلمات الليل،

وتعطرَ جَسدُ الفِتيان

برِائحةِ التُّرْب

دماءِ الحرْب

اندفعوا كهدير السَّيْل.

* * *

(*) مدينة بلبنان.

عرسٌ فى بنت جُبَيْل ،

والفتياتُ صبايا

يحملنَ النُّضرَةَ من إقليم التفاح

فى صفحاتِ الخدّ ،

ويحملنْ شموخَ الأَرْز

على قَسمات القَدّ ،

وامرأةٌ في السبعينْ

تبدو أجمل.. أنْضر

تهتزُ كعُود أخْضَر ،

تختالُ بصَدْرٍ أرَضعَ ألْفَ شَهيد

علّمهم فى نغَمات المَهْد

أن الجد هو الجَدْ ،

وأن السيفَ هُو الحدّ ،

وأن يدًا غاشمةً

تمتُد إلى وجْهِكَ

كى تَسلبه نورَ العَيْنَينِ ،

وسمْعَ الأذنينِ ،

وذاكرةَ الماضى والحاضر

لن تَرْتَدْ.

عَبْر الحبر... يُراق على الأَورْاق

عبْر هَديرِ الأَشْدَاق،

لن تَرتَدْ

بِغَيرِ اليَدْ.

❖ ❖ ❖

أرضعهم هذا الصدرُ

أنكَ إن أحْنيْتَ الرأْسَ؛

لَنْ تبصر أكثَر مِنْ مرمى القَدمين

سوفَ تصيرُ بلا عَينينِ

ينطمسُ الأنْفُ فلا يشتم

رياح الخطر المحدقْ

كلُّ خلايا الجسد النابض تتمزقْ

ويصير القلبُ خواءْ،

يصير الجمعُ غُثاءْ،

تتبلدُ فى العين الأشياء.

❊ ❊ ❊

أرضعهْم هذا الصدُر

أنْ يشمخَ أنفُ الإنسانِ
ليبصرَ أكثرْ ؛
كى لاَ يتَعثرْ
أن يمَتلئ القلبُ بنور الإيمانْ
فتحالفك الأحجارُ،
تحالفك الأشجارُ،
والطيرُ الرابضُ فى الأوكارْ.
تحالفك الأرضُ على المُغتصب المحتلْ
يحالفك السهلُ،
يحالفك التلْ.

* * *

أرضعهم أنَّ الأرض لنا،
والأمسَ لنا،
وأنَّ الفجرَ الكامن فى شُرفاتِ الغيبِ
دنَا.

* * *

عرسٌ فى (بنت جُبَيْل)
لمعَ السيفِ ورقصَ الخَيْل

وضيوفُ العرُسِ

حفنةُ رَمْل من حطّينَ،

وبقايا من قلْعَة بارليف،

وعيون من شرفات القدسِ تنادي

وا... معتصماه،

كان لديَّ فتى صخريَّ القدِّ

وتاه.

هل يبحثُ عن نوق خُزاعةَ مهْرا

هل يَمضى نحولكِ يا بنتَ جبيل؛

كى يوقنَ أن يدا غاشمة

تمتد إلى وجهك كى تسلبه نور العينينِ،

وسمعَ الأذنينْ

لن ترتدْ

عبر الحبرِ يُراق على الأوراقْ

عبر هديرِ الأشداق

لن ترتدْ

بغير اليدْ.

(٢) قصـــة حصـــان

للشاعر "جاك بريفير"

فلتسْمَعوا يا أيُّها الشجعان،

حكايتى

رحلةَ عُمْرى.. قصَّتى

فذلكَ الَّذى يَقُصُّ فرسٌ يتيم

يَحْكِى لَكُم همومَه الصغيرة

آهٍ من الهموم.

* * *

ذاتَ صباح كان صاحبى القديم

"الجنرال"

أو فلنقُل ذَاتَ مساء

كان لهذا القائد الكبير

زوجانِ من خَيْلٍ أصيل،

ماتا معا تَحْت سريرِه القديم

آهٍ منَ الهموم،

مريرةٌ هى الحياة

كان أبى الشقىُّ وأُمِّى الشقية

همُا اللذَيْن اختَفيا تحت السرير

تحت سرير القائد الذى اختفى

فى مَوْقع مُحَصّن فى آخر الصفوف،

فى مدينة نائية فى طَرف الجنوب

كان إذا ما أقبلَ الليل

يكلم القائدُ نفسه،

يروى همومَه الصغيرة

وهكذا

ذات مساء

من كثرة الهُموم

تحت ذلك السريرَ ينْفُقان

أما أنا فقَد فَقَدْتُ منْبَع الحنان

وعندما انتهيتُ ليلة

من وَجْبَة العشاء فى الاسطبل

أطلقت ساقى إلى المدينةِ الكبيرة

وخطوةً فخطوة

معذرة يا أيها الشجعان ،

وصلت باريس

وفى حوافرى سنابكُ صغيرة

طلبت أن ألْقَى الأسد... مليكَنا

فكان أن صُفِعتُ صفعَة

على المُؤخرة.

كانت طبولُ الحرب يوْمها تدقْ

فألجمونى "أسرجونى" عبأونى للقتال

وصلت ساحة النزال.

* * *

لكن لأنّ الحربَ تستمرّ... تستمرّ

فالعيشُ يَقْسو والغلاء يَسْتَعر

وكلما اشتد الغلاء

وكلما مررتُ فى الطريق

رأيت نَظْرة غريبةً فى أعين البشر ،

تصحبها قضقضةُ الأسنان

سمعتهم يدعوننى "البفتيك"

ظننت أن الكلمة الغريبة
تطلق فى بعض اللغات
على الحصان
آه من الهموم،
رأيت كل الأصدقاء
من كانت الأيدى تَمرُّ منهم مداعبة
على خصائل الجبين،
من كان يرجو لى مزيدا من بقاء
رأيتهم ينتظرون أن أموت؛
لكى يصير لحمى الشهى
مأدبة العشاء.

* * *

وليلة.. كنت أنام،
سمعت فى الأسطبل ضجة خفيفة،
سمعت صوتا ليس بالغريب
قد كان صوت صاحبى القديم.. "الجنرال"
قد عاد من جبهته يصحبه رفيقه العجوز
ظنا بأننى أنام.. تهامسا.

"كل الذى نريده
بعضًا من الماء.. من الأرز
وأن نعد لحم ذلك الحصان".
تدور فى عروقى الدماء
كأننى ثور يهيج
أقفز من حواجز الأسطبل
ثم أطلق الساقين للريح
أفر.. أحتمى بقاعٍ غابة بعيدة.

* * *

والآن،
تنتهى وقائع الحرب،
يموت "الجنرال" فى سريره
يموت ميتة مريحة
لكننى أعيش
طاب مساء "الجنرال"
طابت ليلته
وفتحت لكلِ ألوانِ الطعام
شهيتُه.

* * *

النقر على الأوتار

نقرتُ بالأصبع فَوْقَ ظهر عوديَ القديم
فغاصتْ الأصبعُ فى لُجة بحر من تراب
واخترقتْ بيوتَ عنكبوت
وأنكرت عيناى لون ذلك الإهاب
لكن ظفرى عندما لامست الهيكل..
بعد طول الاغتراب،
سرت بها أمواج رعشة خفيفة
واستقبلتها موجة من الصدى
خافتة ضعيفة،
لكنها عميقة النبع كأنها
قادمة من جوف بئر
أو من دروب غَابةٍ مخفية

* * *

نقّرت عودى عندما أقبل صاحباى
لكى يقولا : آنَ أنْ ترجع للغناء

المسرح القديم قد أُعِدّ،
واللافتات عندما تصدرت شوارع المدينة
شدّت عيون جيلنا،
وزرعتْ أسئلةً غريبة فى أعين الصغار
وارتفعت أكتاف بعض الناشئة

* * *

يا صاحبَيّ،
لا تنبشا عن جرحىَ القديم
فلن أعود للغناء
أَلفْتُ أن أسير فوق الأرض ثابت الخطى
لا أن أسير فى الفضاء.
أَلِفْتُ أن أرسوَ بالزورق فوق شاطئ
مبتعدا عن عاصف الأنواء
أَلِفْتُ أن أشد فوق جسدى الغطاء
فى أول المساء
فلن أعود للغناء

* * *

نقّرتُ بالأصبع فوق ظهر عودىَ القديم
أخاف أن نرجع للمقهى،

وللشطائر الليلية المُتَبَّلة،

أخاف أن نلتف بعد نصف الليل

حول بائع الشواء

وأن تذوب فى عيونى ألفة الأشياء

وأن يصير عالمى أوسع مما شِدْتُه

وأن أحس بالنشوة عندما يمتلأ الرداء؛

بهَبَّة النسائم الصيفية الرخية

وأن أضم فى عيونى الربيع والشتاء والخريف

وأكره الغطاء فى أوائل المساء

* * *

نقّرت بالأصبع فوق عودىَ القديم

أخاف أن تخذلنى أصابعى،

أخاف أن تخذلنى الأوتار،

أخاف أن يكون فى حنجرتى بعض الغبار،

فلا يموج فى العروق ذلك التيار

حينَ يبعث التيار

أخاف أن تخذلنى العيون،

تعودت أن تشرب المغنىَ الصغير

مُرْسَلَ الشعور،

مُسْبل الجفون،

منسق الياقة والرداء،

يحوطه تضوع النساء

تُبعثُ منه رقة المساء.

ماذا ترى فى وجهىَ المغضن القديم

ماذا ترى فى صوتىَ الذى غفا

بضعَ سنين،

لم تستمع له سوى حوائط الحمّام.

* * *

نقّرت بالأصبع فوق ظهر عودىَ القديم

أمسكت بالريشةُ،

داعبت الوترُ،

تولد النغم

تحرك الدفء إلى أصابعىُ،

أحسست بالحرارة المقدسة

تُولدُ فى جوانحى

تسربَ الدفءُ إلى حبال صوتى الذى غفا

أحسست أن نغما فى العمق ربما يجئ

سوف أداعب الوتر،

سوف أُوَلِّدُ النغم

يا صاحبىّ..

ربما أعود للغناء!

* * *

ورقـــة ورد

يشـــرق الصـــفو بنفســـى أنجمـــا

كلمـــا كـــان لقانـــا.. كلمـــا

وضـــياء الثغـــر.. يهـــدى الـــزمنَ

المـــيّتَ فـــى عينّـــىَّ.. لَـحْمًـا ودمـا

آهٍ مِـــن عينـــيك مـــا أروعَ أن

يُجْـــزِل الســـحرُ العطـــا.. مـــا أكْـــرما

عُمْـــق عينـــيكِ نجـــومٌ وأنـــا

أَصْـــعد الهـــدب إلـــيها سُـــلّما

كلمـــا حلقّـــتُ فـــى آفاقِهـــا

أورقَ الحُـــب بقلبـــى.. ونَمـــا

ظمـــأٌ كانـــت ضُـــلوعى أرضَـــه

أَغْـــدقَ الســـيلُ علـــيها وهَمَـــا

يَـــا لَخـــدّيك الأســـيلَين وَيـــا

روعَـــة المَرْمـــر. يـــا مـــا أنْعمـــا

يـــزلَقُ الضـــوءُ علـــيها كُلمـــا

شـــاءتْ العـــيْنُ لـــه أن يُـــنْعما

وشـــفاهٌ هـــى كالـــورد شـــذًى

مـــوتُ هـــذا الـــورد ألَّا يُلـــثما

رُبَّمـــا عطَّـــرت الحـــرفَ إذا

مَـــرَّ مـــن بَـــيْن شَـــذاها نَسَـــما

آهِ باللـــوحة رســـام قضـــى

عمـــره يحـــيا رؤاهـــا حُلْمهـــا

يغمـــسُ الريشـــةَ فـــى مـــاء الهـــوى

يَجْعـــل المرســـمَ قُدْســـا.. حـــرما

وظـــلالٍ نابضـــات حـــية

فَـــنُّه يَخلُـــق مـــنها نَغمَـــا

يمـــزج اللـــونَ مـــع الطِـــيف

مـــع الظِـــل ضَـــوْءا حالِمـــا مُنســـجما

أنْـــتِ شـــلالُ حـــياةٍ دافـــق

يَـــزرع الـــنور بِدَربـــى أنْجُمـــا

المساء الأربعون

كـيف نَجْـتاز المَسـاء الأربَعـين

دُون أن نُـدرك مَعنـى الأمسـيات

نحـن يـا عفـراءُ مـن مـاءٍ وطـين

مـا الْتقيـنا كـى نلـوكَ الكلمـات

قـد مللـناها حكايـا شـهرزاد

ومللـناهُ حـديثَ الغَـزَل

اَطْفئـى .. فالشـوْقُ فـى جنبـىّ زادَ

أطفئـى نـارَ الهَـوى بالقُـبَل

يَـذْبُل الـوردُ إذا لمْ نَـرْوِه

ويَمـوتُ الحُـبُّ فـى جَـوْف السـنابل

فاسْكبى بَعْـض الـنَّدى فـى جِـذْره

كـادَ هـذا العـودُ أن يُصْـبِحَ ذابـل

أنـتِ لا تَـدرين مَعنـى شَـفَةٍ

عانَقَـتْ لحظـةَ إمـتاع شَـفَةْ

مــــــثلمَا عصــــــفورة ظامــــــئةٍ

مِــــنْ غَديــــر بــــاردٍ مُرتَشِــــفَةْ

أنـــــتِ لا تــــدرين معنـــى جَسَـــدِ

شَــمَّ ريــحَ الخِصــبِ يَسْــرى فــى جَسَــد

لهـــبُ الــــرغبةِ يَسْــــرى مـــن يَـــد

فــــيُذيب الــــثَّلجَ أكــــواما بِــــيَدْ

لســــتِ أُنثـــى إن عَبَــــرنا عَامــــنا

فَــوْق جِســر مـــنَ حكايــا الشُّــعراء

خــيرُ مـــا فـــى دربـــنا قـــد فَاتَــنا

عَرِّجِـــى نَــــنْدسُّ بــــين السُّـــعَداء

عَرِّجِـــى هـــذا مســـاءُ الأربعـــين

كَــيفَ لم نُــدْرك جَمــال الأمُسـيات

نحـــن يـــا عفـــراءُ مـــن مـــاء وطـــين

مـــا التقيـــنا كـــى نلـــوك الكلمـــات

لوحة من شتاء عمان

رسمتْ خيوطُ البدء فى السَّيْل الهَطل

عِقْـدا مـن الـبَللور فـى صَـدْرِ الجَـبَلْ

والشـــمسُ غلفهـــا الحـــيا، لكـــنها

سـفرت بـرغـم حجابهـا وهَجًـا يُطـلْ

طـــورا يشعشـــع فـــى الجـــبال وتـــارة

يـــبدو خـــلال المـــاء نـــورا يغتســـلْ

والأفـــقُ لَوْحـــتُه، الـــرَّحيبةُ، حِـــزْمَةٌ

مـن ألـف لـون اسـكرت كـل المُقَـلْ

التـــبر بعـــض تـــرابها وبياضـــها

وهـج الـثغور ثملْـن مِـنْ رشـف القُـبَلْ

وســحائبٌ مـثل المشـيب تمازجـت

صـفو الحليب جـرى بـهِ لـون العسـل

مـــسَّ الهـــواء رضـــابَها فأذاقـــه

النشـوى فخـف أمامـه شـجر وتـلْ

وتأهـــبت كـــلّ القـــوى للحـــب

والإخصــاب مشــتاق يطــارده غَــزِلْ

فــتجمعت قطــع الســحاب تــتابعت

وتكاثفــت جــبلا يطــل علــى جــبلْ

يحـــــتك دانـــيها بعالـــــيه فـــــلا

يُـــدْرى أصـــخرٌ خَــفَّ أم نهــر ثقــلْ

وازدان عُـــرس الأرض وهْـــى حيــية

بالبَــرق يكشــفُ سِــتْرها إمَّــا نــزلْ

والــرعْدُ زَمْجــرةُ الفحــولة هاجهــا

زَمــنٌ مــن الجَــدْب الشــديد المتصــلْ

وانســـابت الـــوديان تبـــتل العـــروق

بهـــا فينـــتفضُ الشـــحوب ويـــرتحلْ

وتخـيط كســوتها العـروس، قميصــها

المخضــر والقــد الخصــيب المعــتدل

مــن يلمـس الـرمان فـى ألـق الضـحى

أو يشـــمم الـــتفاح فـــى خَـــدٍ أَسِــلْ

أو يغتســـلُ بالنــبع فــاض ويـــرتوى

فلتنــتعش فــى ناظــريه رؤى الأمــلْ

مخاوف على شاطئ الحب

يا ناعسة الجفنين،
إليك أَسوقُ عتابى وأسوق حنينى
قلبى مسَّته الريحُ الليّنة الأمواج
ذات صباح وردى الشّطينِ
حين تبسمت الأهدابُ الوسنى عن أجمل عينين
حين تفتحت الأجفان
عن زهرة حبٍ عسلية،
زهرة حب برية،
يتماوج فيها السحر،
يتدفق منها أصفى الألحانِ.
يافاتنتى،
حين نشرتُ قلوعى نحو مرافئك الخضراء،
حين توجهت بكل حنينى نحو شواطئك الحلوة
ما كنتُ لأدركَ أن الريح ستقسو حين تذوب قلوعى

يا فاتنتى.. الريح تهز الموج بقسوة شيطان

والزورق يصرخ فى فك الأمواج

وأنا أنظر فى خوف للبحر الهائج ،

للماء الغاضب ،

للقاع الظمآن ،

للجسد الطينى الذائبْ.

* * *

إلى الشهيد المجهول

لا صَدْرُ أُمِّكَ الحنون
ضم كتفيكَ عند الاحتضار...
ولا أصابعُ الحنان
أسْبلت أصيل عينيك الوديعتين
ولا دموعُ لحظة الوداع
قد بَللت منكَ شحوبَ الوجنتين
ولمَ يَشُق الأفقَ حينما رحلتَ صرخةُ التياع
وإنَّما فوْقَ صحارانا العطاشَى
فوق تلالنا الحزينةِ الرمالْ
توهج الشبابُ فى عينيكَ لحظتين...
ثم تلاشى،
وحينمَا امتطيت صهوَة الرحيلْ
شقَقتَ أُفْقَه الثَّقيلْ
قفزْتَ قفزةً مهيبةً من الضُّحى إلى الأصيلْ
وكان زَهْوُ عمركِ الندى

مستعصيا على الذُّبولْ.
فى الصبح حينما تجمَّعوا لنوبَةِ العَلَمْ
لم تكُ بينَهم ،
سبقَتهم ،
وحينما تصايحوا بِنَوبة التَّمَام
لم تَنْطقِ الرقَمْ.
مكانُك الخالى وأعْيُن الرفاق
تسبيحةٌ تطوف من حَوْل الحَرَم
إن كنتَ فى صَمْتٍ رحلْت يا شَهيد مِصْر
فزهرةٌ أنْت علىَ مَفْرِقِها الطَّهور
ودَمُك الَّذى تَسَرَّبت خيوطه فى القَفْر
يُنبت فى صحْرَائنا الظَّمأى إلى الشَّجر
شجيرة فى لَونِ ريفِنا الوديع ؛
تُظل موكِب المسافرين...
العاقدين فى الجباه عُقْدَة الظَّفر
لاَبُدَّ من صنْعا وإنْ طال السَفر
لابد من صنْعا وإن طَال السفر.

***

أغنية إلى الموانى

رحلتُ فى الأرض قاصيها ودانيها

فما عشقتُ بها إلا موانيها

عرائس البحر يجثو عند أرجلها

ولا تزال هداياه بأيديها

يبثها سر أشواق نمت حِقَبا

فى باطن الدُّر، والأصداف تحميها

يبثها سرَّ أشواق ينُوء بها

المدُّ ينشرها، والْجَزْر يطويها

الموجُ يرسلها، والرَّمل يَحْملها

والشطّ من خَلفه يزهو بهاتيها

يغلّف السر فَحْواها ويُدرِكُها

أهلُ الموانى وإنْ ذقت معانيها

من للشراعات إن ترسو يعانقُها

وللشراعات إن تنأى يناجيها

مــــن للحلــوق إذا جَفّــت مســافرة

وللعــــيون إذا ابــــتلت مآقــــيها

مَــن للغــريبِ إذا طــال الــرحيلُ بــه

إلا ابتســام الاقاحــى فــى موانــيها

مَــن للطمــوح إذا ضــاق المكــان بــه

ولم تســع حلمــه الدنــيا ومــا فــيها

واشــتاق أن يضــرب الآفــاق مخترقــا

وأن يخــوض اللــيالى فــى دياجــيها

وأنْ يــروض مــياه البحــر عاديــةً

فرســانها أمســكت بــاللجم أيــديها

يــرتاد فــى كــبد الآفــاق مــا بَعُــدت

أفاقــه ، وضــياء العلــم يدنــيها

سـل ابـن ماجـد عـن سـر البحار وقـل

لسـيد الأسـد راعـى الغـاب حامـيها

ومــن أتــته وحــوش البحــر طائعــة

ولان أصــعَبُها وانقــاد عاصــيها

فلــم تعــد أبحــرُ الظلمــاء مظلمــةٌ

وإنمــا أشَــرقت شــتّى نواحــيها

وامــتـدَّ صــوتُ أذان الفجــر مــنطلقا

للشــرق يســعى لخـدْر الشـمس تنبـيها

واستيقظتْ من موانى البحر مَنْ غَرِقت

فـى المـوت حتَّـى أتـى الـبحار يُحْيـيها

حَيِّــى الموانــى وعظّــم ذكــر أهلــيها

تَحلــو الموانــى بمــا فــيها ومــن فــيها

* * *

الدفء ... والثلج

أشمُّك فى كُلِّ مَسْرى النَّسيم
وكلُّ ابتسامِ الزَّهَر،
وكُلُّ اخضرارِ الربيع النديّ
إذا غرس الروحَ فيه المطر

* * *

لأنى حينَ ضممتُك يَا فِتنتى،
تَضَوَّع فى أنَفى الفلُّ والوَرْد والياسمين
وحين استراحت على كتفى خَصلتاك
نسيت عذاب السنين
وهبَّت علىَّ نسائمُ بَحْر رقيقٍ حنون
وحينَ استرحْتُ على شَفَتيكِ
شربتُ عذُوبة نبعٍ مُصَفى
يعيشُ به الدفءُ والثلجُ جنْبًا لجنب
وينبتُ فى سَاحهِ روضُ حب.

أشمُّك في كُلِّ مَسرى النسيم ؛
لأنك تَحْيَيْن في داخلي
وكلِّ ابتسام الزَّهَر ؛
لأنك يَا قطرات المطَر
غرستِ الربيع بكلِّ حقُولي
زرعتِ المرافئ في ساحلي.

* * *

إلى محمد الزبير
مصور الجمال العمانى

يــا ناســج الضــوء أنغامــا وألحانــا

سَــطَّرتَ عشْـقَك تلمــيحا وإعلانــا

هــذى عمــانُ التــى أحببــتَها ظهــرتْ

مجلــوةً تَــرْتدى للحُسْــن أفــنانا

مــا بــيْنَ مــئذنةٍ بيضــاءَ شــامخةٍ

تُوشــوش الــنجمَ تَــيها بالــذى كانــا

وبــين جَاريــةٍ فــى البحــر رافعــةٍ

أعلامَهــا يــزدهيها الحســن نشــوانا

أو صــخرةٍ فــى الأعــالى عــزَّ مطلَـبُها

الدهــرُ لان ومــنها العــزم مالانــا

أو سربٍ طيرٍ سعى فى أفقها فرأت

عيــناك فــيه مــن الإحكــام ألــوانا

أو لحظـــةٍ لشـــروقٍ رُبَّمَــا مـــرقت

والكـونُ يبدو غضيضَ الطرف وَسْنانا

أو لحظـــةٍ لغـــروبٍ ربـمـــا عبَـــرت

علـى الجُفـون فلـم تحفـل بهـا شـانا

يـا ناسـجَ الضـوء قـد صـوَّرتَها تحفـا

فـــريدةً، بـــوركت كفـــاك فـــنانا

جنيّـةُ البحـــر

أىُّ فج من فجاج الأفق ألقى بكِ يوما
أىُّ ريح هزت السطح الذى يغرق نوما
جعلت صفحتَه الناعمَةَ الملساءَ كَوْما
حركت فى قاعه عتْبًا.. وأرضاءً .. ولوما

* * *

أنتِ .. يا جنيةَ البحر .. التى تَعْزف لحنا
فيه من وحشية الجِنّ .. ولكن ليس جنًّا
فيه من كل جمال البحر .. لكن ليس هَوْنا
فيه ما يَقْتل لكن لا أرى فى القتل غَبْنا

* * *

أنتِ يا من صدْت هذا الوتَر الحسَّاس منى
تعرفينَ الأرق الدائمَ فى أحشاء فنى
أنا لا أبحثُ عن شَطٍّ به ترتاحُ سفنى
إنما أبْحَثُ عن بحرٍ عتىٍّ الموجِ مُضنى

أطلقى أَوْعيةَ السحر وألوانَ البخور،
أَطْلقى فالنَّوُم يُودى بِخُطانا للقبور
أَنَا أهْوَى رَهْبةَ الغابات لا سِحْرَ الزهور
أنا أُصَفِّى من لظا النار ابتساماتٍ ونور

* * *

إِنَّ فى أَعْمَقِ أعماقىَ صيادا وغابةْ،
همجىَّ الرقص.. لا يعرفُ إيقاعَ الرتابةْ،
باحثا عن حلْقِة النارِ لكُى يذكى عَذابه
أنت يا جِنيَة البحر .. تجيبين طِلابَه.

* * *

زفـــــرة

يـــشبُ الدهـــرُ أشـــهرًا وســـنينا

والأســـى مـــا يـــزال فيـــنا دفيـــنا

كالحـــيارى تشـــتت الخطـــو مـــنا

تـــارةً يَســـــرةً وأخـــرى يَميـــنا

فقـــد الـــنجم ضـــوءه فـــى عـــيونٍ

طالمـــا وجَّهـــت إلـــيه الســـفينا

لم يغـــب نـــوره ولكـــنَّ نـــور

العـــين خلـــفَ القـــذىَ يظـــلُّ ســـجينا

نهـــض الـــناس كلـــهمْ وكـــبونا

ومضـــى الخلْـــق للْعُـــلا وبقيـــنا

نتغنـــى بمجْـــدِ أجْـــدادنا الغُـــرّ

ونُجْـــرى علـــيه دمعـــا ســـخينا

مـــا صـــنعنا لكـــى يكـــون لـــنا

الأرث ونبقـــى لمجْـــدهمْ حافظيـــنا

هـمْ أقامـوا للْعقـل صـرْحـًا عظـيما

وبَنَيْـــنا مـــن الخُـــرافة ديـــنا

وتـــركنا نهجًـــا قـــويما مـــن

الله وصـــرنا نقـــدس الجاهليـــنا

قصـــدوا جوهـــر الأمـــور فجلّـــوها

ولم نـــدرك الـــذى يقصـــدونا

وانكفأنـــا علـــى القشـــورِ انقســـاما

وانشـــقاقا ولم نـــزل عاكفيـــنا

أبصـــروا الكـــون صـــفحة خطهـــا الله

ورحـــنا نحـــارب المبصـــرينا

وارْتَقَـــوْا للســـماء فاســـتقبلتهم

وســـعى ســـرُّها إلـــيهم حنيـــنا

يبســـم الـــنجم للطمـــوح الذكـــى

ويـــرنو إلى الكســـالى حـــزينا

أمســـكو الـــنجم بالأيـــادى وســـرنا

دون خـــيط مـــن الضـــيا حاطبيـــنا

ركـــبوا البحـــر قاهـــرين فســـادوا

واكتفيـــنا بشـــطه لا عبيـــنا

مـــلأوا الأرض بالكـــنوز وجئـــنا

فأضـــعنا كـــنوزها متلفيـــنا

عـــرفوا لـــذة الـــتوحد والحـــب

فكانـــوا علـــى المـــدى صـــاعدينا

وأشـــعنا معنـــى التحاســـد، والفـــرقة

فيـــنا، فلـــم نـــزل هابطيـــنا

واجهـــوا الكـــون أمـــة فأقامـــوا

أســـس المُلْـــك فتـــية شـــامخينا

وأتيـــنا إلـــيه شـــتى فُـــرادى

فلقيـــنا مـــن بأســـه مالقيـــنا

وأقامـــوا مـــوازن العـــدل حـــدًّا

إنْ رعايـــا أتـــوه أو حاكميـــنا

واســـتبحنا مـــن بعـــدهم كـــل حـــدٍ

فغـــدونا جميعـــنا ظالميـــنا

طفـــح الكـــيلُ يـــا ألهـــى ولا مـــنجاة

إلا إذا إلـــــيك هُديـــــنا

فاكشف الضر، وارفع الحجب، وأمنح

قَـــدْ أتيـــناك رُكّعـــا ســـاجدينا

* * *

تحية إلى عُمان

بــين الحــنين لمــوطن الأوطــان

والحــب للــبلد العزيــز الثانــى

يــنمو هــواى ؛ فبعضــه مترعــرع

فــى أرض مصــر وبعضُــهُ بِعُمــانِ

بلــدان حــبهما مــدادُ خواطــرى

وهــواهما قــد قَــرَّ فــى وجدانــى

شــارفتُ (مســقط) ظامــئا مــتعلما

والعلــم أنهــارٌ بــلا شــطآن

فشــربْتُ مــن أفلاجهــا وعــيونها

وفُتُــنت بالغــيم المطــير الدانــى

ومــددت كفــى للســحائب والهــا

فهطلــن مــن عَســلٍ ومَــن ألْــبان

نادمتُ أهـل العلـم، أهـل الفكر، أهل

الشــعر، أهــل الذكــر والقــرآنِ

وحـــلا وطـــاب حديُثـــنا وشـــرابُنا

وتـــدفقتْ خمـــرٌ بغـــير دنـــان

ولمســـتُ فـــيهم نخـــوةً عـــربيةً

مـــا راقَ مـــن عَـــدنانَ أو قحطـــانِ

ورأيـــتُ فـــيهم حكمـــةً فطْـــرية

للصـــمت فـــيها أوجـــةٌ ومعانـــى

وسمعـتُ مـن لطـف الحـديث ووشْـيهِ

نَغَمـــا يَشـــيع بطَـــرْفهِ كـــل لســـانِ

ورأيـــتُ نهْجـــاً نيِّـــرا متبصِّـــرًا

ولمســـتُ عـــدل وحكمـــة الســـلطانِ

ولمســـتُ كـيف يقـوُد شـعبًا طامحًـا

لغـــدٍ وكـــيفَ يمـــد فـــى البنـــيانِ

لله در الطـــــامحين إلى العـــــلا

لله در الغُـــرِّ أهـــل عمـــانِ

* * *

حفيف الصمت

يدبُّ لمرآكِ فى الصدر نمل كثيرْ،

ويضطرب الريق فى الحلق

لا يستبين طريق المسير

ويختلج الجفن رغم التظاهر باللامبالاه

وأفتحُ عفوًا كتابًا أمامى

أُخبى عينَىَّ بين السطور

وأقرأ سطرين..

أُسمِعُ نفسىَ همسَ وجودى

* * *

على البال نحن...؟

أم أن الضياءَ المشعَّ بعينك

حين أراك ،

وتنهيدةَ النجم فى الشفتينِ

عطايا يفيضُ بها النبعُ دُون إرادة...؟

* * *

على البال نحن...؟
أم أن الأصابعَ حين التقتْ
ونحن نسير الهُوَيْنَا
وأحسستُ رعدتَها فدعوتُ؛
فلبت حنينا...
وعايشتها طائرًا مستكينا
بكفى استراحْ...
... لم تَكُ إلا بقايا حلم
ورغبةُ دمْ.

* * *

على البال نحن...؟
أم أن الحديث الذى لفّنى
سيولةُ نَهْر،
ورقّةُ فَجْر
وفرحة طيْرٍ ظَمِىءٍ وَرد
وضحكاتِك الصافياتُ
رنينُ التقاء الرُّخامِ بصافى الذهب
وسيْلُ حكايا الطفولة...

... كان كلاما؟

* * *

على البال نحن...؟
أم أن الوداع الذى كان
قبلةَ ودٍ وليد،
وأمنيةً فى لقاءٍ قريب،
وتلويحة باليدينِ
تضئ الطريق...
... كان ابتداءً وكان انتهاءَ؟!

* * *

أجيبى...
فقد يَهْدَأُ النَّمل فى الصَّدر،
والريقُ فى الحَلْقِ،
قد تستقرُّ الجفُون
وقد يسْتريحُ الجنون
....

* * *

تائـــه فـــى المدينـــة

(١)

الليل فيلق من الظلامِ.. زاحف على مسارب المدينةْ

يخنق فى أعينها بقيةً من النّهار.. رخوة .. دفينة

باهتة الشعاعِ.. يا رخاوة الأصيل أنتِ.. غنوة حزينة

عينا مريض.. نظرة المسكين صفراء الرؤى قد مازجت أنينه

حقلٌ .. ولا مياه فى عيدانه.. وريح إعصار تهزها.. سخينة

بحرٌ من الرمال واسع الخطى.. أمواجُه تزلزلُ السفينة

* * *

ضارية .. يا رحْبة الميدان أنتِ.. مثلما اللباءة السجينة

ضارية.. وهذه الأبواق لا تكف.. عن كلماتها اللعينة :

"من لم تكن فى ساقه مهارة العداء فافقأوا هنا عيونه"

"ومن تخونه الذراع فى المياه.. حق للمياه أن تخونه"

(٢)

ضارية.. والليل ضارٍ.. والغريب زائغ الخطى.. مضيّع الطريقْ

أفتش الوجوه..كل سحنة تمرّ.. شَارِبٌ كثٌّ..ووجهه النحاسىّ طليق ،

قوامه تثاؤب النخيل.. وابتسامة على محياه الرقيقْ
أعرفه من بين ألف.. قسوة أن تهرب القشّة عن عين الغريق
شارعه! وبيته! يالعنةَ البيوت.. كلها كعُشِّه الأنيق.

(٣)

يا ضيعةَ الإنسانِ فى مدينةِ الزحام.. ليس للغريب من رفيق
يا قريتى. ما أروع المساءَ.. فوق تربك الطيب.. تربك الشفوق
أسراب حبٍ عائدات.. موكب من الأوزّ.. صبْية على الطريق
تسأل أولاد الحلال:
"ولدى مخطط الجلباب ذو رأسٍ حليق"
"انسربت أقدامه مع الرفاق لاعبًا.. ولم يعد منذ الشروق"
"يا من يدلنى.. وألف شمعة تضاء فى أروقة البيت العتيق"
كل شفاه قريتى أصابع مومئة تدلّها على الطريق..
مومئة لعشّهِ.. "هنا عجوز هدهدته ملء قلبها الشفيق!"

* * *

يا قريتى.. مكتظة مدينة الزحام رهبةٌ كجبّك السحيقْ
ضاريةٌ.. والليل ضارٍ.. والغريب ضائع الخطى مضيّع الطريق.

(٤)

القدم المعصوبة العينين كلّت من تتابع الوقوف والمسيرْ
قاسية.. يا رحلتى يسلمُنى للشارع الضرير شارع ضريرْ.

بيوتها كأنها مفتوحةُ الأبوابِ.. لكنْ ولوجَها عسيرْ
عالمها المسحور.. لست أملك الرقى.. ولا حزائما من البخورْ
شلاّء كفّ أجدبتْ.. عين الغريب مقلة حائرة دون نورْ.

(٥)

يا ضيعتى.. لو أن طارق المساء ضمّه مسجد قريتى الصغيرْ
لعانقته كلُّ عين.. زاحمت راحَته الأكفّ.. فى ودّ وفير
باقاتُ حبّ فى خطاه.. أوجه تنافست قِراه.. قلبهم كبير
وحيرةُ الغريب فى مدينة الزحام.. ملهاة تفرِّج الكثير
وقدمى المعصوبةُ العينين كلّت من تتابع الوقوف والمسير
قاسية مدينتى.. يسلمنى للشارع الضرير شارع ضريرْ.

* * *

وأسفا على الذيـن رحلـوا

هذا المساء.. رقّت الأنسام فى سمائهِ
عريانةٌ نجومُه.. تخبّ فى صفائه..
أمواجُها.. نهرٌ يعبّ الأفق من ضيائه
وصمته.. صومعة العابد فى خلائه

* * *

هذا المساء.. صافحتْ كفِّى بقايا ورَقَهْ
حروفُها تآكلت.. أطرافُها ممزقه!
عشرون عامًا.. أكسبتها صفرةً مشوّقه
سطروها .. أكوام جهلٍ.. عارمٍ.. محرّقه

* * *

"يا ولدى.."
وفى مرارة تتابُع السطورْ
"إليك فى عاصمة الطغاه.. عامنا عسير!"
لم تبخل التربة - يا بنىّ - خيرُها وفير"

"ولا أنا .. ولا الذين عايشوا الهجير"

* * *

أيامنا مرّت .. جباهًا تستحمّ بالعرقْ"

"وأيديًا.. تعتصر الفأس.. وجهدًا يخترق"

"وألف عين.. خلف بذرة وليدةٍ.. تشق"

"نعيش ساعاتِ الرضاع.. كل ما فينا حَدَقْ!"

* * *

"أيامنا مرت.. صبيّةً تتوق للحصاد.."

"للسنبلات.. للحذاء.. ثوبها الميّاد"

"لطرحةٍ.. فما غَدت حديثة الميلاد!"

"أحلامها.. أن يسرع الحصاد والأعياد"

* * *

"ياما ما خطت .. فوق الجسور.. غنوةٌ مرقَقَه"

"متاعُها.. وزادها.. لُقَيْمةٌ محترقهْ"

"وقطعةٌ من الإدام فى ثنايا المنْطقة"

"وأملٌ فى الأمسياتِ الساحراتِ المشرقة"

* * *

"أيامنا مرت.. شبابًا لم يظل يعدّها"

"تُحصى ثوانيها.. ويُحصى نومها ، وسُهدها"

"فالعرس فى الحصاد.. ألف عشة.. نُشيدها"

"ألف فتاة.. سوف يزدان هناك.. جيدها"

* * *

"وأشرق المخاض فى السنابل المذهّبَةْ"

"هدية.. من السماء للفئوس المتعبة!"

"لقريةٍ.. ضاقت بها أيام بؤسٍ.. متربة"

"لصبْيةٍ.. لعشّةٍ.. لمسجد.. لمصطبة!"

* * *

"لكنما مع الحصاد.. أقبل الجنود.."

"الورق المزيّف المكتوب.. والوعود.."

"مطالب الباشا.. وجلّادوه.. والرعود"

"وغلّة الحصاد.. قصةٌ بلا حدود.."

* * *

"معذرة يا ولدى.. فَيَدُنا قصيرة!"

"وفى الختام.. قبلةٌ مريرةً... مريرة".

* * *

عندما غاب القمــر..

نسائم الصيف التى تهيج ذكرياتنا

وقمر يكشف منا جوعنا.. عراءنا

وأُفُق... رُصّت على دروبه.. خيامنا

تحتضن الأنّات.. والدمع السخين.. والضنى

* * *

نسائم الصيف الجديد

وكلما جاء جديد..

أهاج ألفَ أمسية

الرحبة الواسعة الأطراف فى مشارف الحقول

وقمر يمتصّ من نسائم البحر.. الصفاء

وريح صيف..

ألبسها من نسجه الضياء،

وموجة من الوجوه.. تعبر الدروب فى عجل!

التربة السوداء.. والآمال.. والنبت المُطل

واليوم لم تعبر به نسمة ظلّ

والشوق للصاحب فى العيون

والشوق للمساء.. والسمر

لأغنيات تحت أنسام القمر

والكلمات.. المورقات

تنساب عبر أغنية

يرسلها الناى الرخىّ.. ساعةً مستأنيةْ

يـا عابـر الـدربِ.. عـرّج عـند مغْـنانا

لا يعــرف اللــيل والسّــمار.. أحــزانا

مــرّ الضــحى... عــرقا تنســاب دفقــتُه

فـى الأرض.. خصبا.. وإرسـاءً، وبنـيانا

تجاوبـت فـى صـداه الـرحب.. أغنـية

وشّـى بهـا الفـأس والعصـفور.. دنـيانا

الأرض حلــم قــرانا.. كلمــة بــرقت

فــى أعــين الصــبيةِ الخضــراءَ.. إيمانــا

الأرض حلـم قـرانا.. كلمـة صـدحت

بهــا بــنو تــربها شــيبا، وشــبّانا

أعـــوادها الخضــر تحــوى فــى أجنَّــتها

أعمارنـــا.. غــدنا المأمـــول.. مـــوتانا!

لـــو مسّــها الــريــحُ.. شــدْنا دون مســتها

ســـدا.. أقمـــنا بـــه الأجســـاد بنـــيانا

الليل طال.. يا صحابْ،

والسَّمرُ امتدّ فعانق السحر

وكاد أن يغيب عن سمائنا القمر

من قبل أن يخيِّم الظلام فى الدروب

ولا نرى طريقنا

هيا بنا..

الدرب إيقاع خطى.. وَوَخْزةٌ من النسيم،

وكلمة من نغمة الموّال راحت ترتخى

فوق الشفاه.

* * *

"الأرض.. والريح التى تعكر الحياة"

وفجأة.. تمتلئ الدروب بالجنودْ

أسنة الرماح.. والسيوف.. والخطى الثقيلة

ونفخة الأبواق.. والبنودْ،

ديارنا.. حقولنا..

والقمر الصغير غاب عن مشارف الأفق،

ولم نفق،

إلا على صوت حزين

تزفره.. أرضٌ عراء،

يهتزّ في ساحاتها.. نداء.

* * *

نسائم الصيف.. التي تهيج ذكرياتنا

وقمر.. يكشف منا جوعنا.. عراءنا

وأفق.. رصّت على دروبه .. خيامنا

تحتضن الأنّات.. والدمع السخين.. والضنى.

أحجــار القــدس

صخْرةٌ كانت على بوابةِ القُدس تنام

دفنتها الريحُ عاما بعد عام

وأهالت فوقها التُرْبَ...

وغطاها الركام:

شهدت خطو (عُمَر).

حين مرت ناقة عجفاء.

تعبت من وقدة الحر...

ومن طول السفر

وأحسَّت صخرة القدس

بأنسامٍ رخيّاتٍ تمر

شهدتْ عدْلَ عمر

وحنو الخطو من جند عمر

وأحبَّتْ صخرة القدس...

خطا الناس...

رفعت عنها الركام.

سكنت فى قمة القبة...

صارت مسْلمةْ.

مر عام بعد عام.

ذات يوم زمجرت من حولها الأفاق

واسود الغمام.

وأحست بحرابٍ تطأ الأرض...

وأقدامٍ تدوس العِرض...

قالوا: لم تعودى مسلمةْ.

إنما أنت بقايا حائط المبكى...

فكونى صَنَمهْ.

واستكانَتْ صخرةُ القدس سنينا

ومشى الخطْوُ على أعينها...

صمتا حزينا،

وسرى الجرح دفينا

ومشى فى أضلع الصخر حنينا...

نحو أقدام عمر،

وحنو الخطو من جند عمر

وأَحَسَّت صخرة القدس بأقدام تمر

وبشعب دمهُ يغلى هوىً

والكف صُفْر

قالتِ الصخرة للفتيان: إنى أتفتتْ.

فخذونى حجرًا بعد حجرْ.

وسأسرى فى ضلوع الأرض...

فى غزة والرملة واللد...

وفى كل ممر.

فانبشوا عنى

ارشقوا بى الريح...

فأنا مسلمةٌ والريح مسلمْ.

وهوانا عربى.

سوف نهْوى حيثما تهْوون...

نمضى.. نتكاثر.

فالصخور الصم آساد كواسر،

حينما تقذفها قبضةُ ثائر.

* * *

قــارئ الكـــف

حين أرحتِ وجهَك المرُيح...
فوق كَفّك الصغيرةِ المُنَعَّمة
ولامستْ أطارفُ البنان...
منكِ شفَةٌ مُبتسمة
ورحت تَسْمعين بالعُيون
تتابعين وَقْع كَلمى المُقَيَّدة
أرسلُها بطيئةً متئدة
تبحثُ عن طَريقها الدَّقيق...
تخافُ أن تَضِلّ
تُريد أن تصافحَ الآذان...
تُريد فى العيون أن تَحُلّ
أرسلُها .. انتظرُ الصَّدى
وحينَ ألمح الرموشَ قد تباعَدَتْ
وألَمحُ المُقلة قَدْ تراقصت

وألمحُ الشفاهَ موجهةً رقيقة من الندَّى
تشفُّ عنُ لؤلؤها المُضئ
أعلمُ أن مَا أقوله ليس سُدى
ليسَ سُدى.

* * *

وتبسطين كَفَّك الصغيرةَ المنعمة
"فى الشرق تنسجون من خيوط كفّنا حكايةَ الغد"
خذ بَيْن كفيك إذن كلَّ يدى
واقتحمْ المجهولَ بى
سِرْ بنا للأَبد
ولا تخَف - إذا رأيت - أن تَبوح
بغدى الباسمِ والجريح"
وحق وجهِك المريح...
وحق كفِّك التى أضمُّها بَين يدىّ
لقد نسيتُ كل شئْ
لقد نسيتُ كل شئْ

* * *

لكن علىّ أن أقُولَ ...

ألمسُ خَيْط الحظّ ،
كَلِمَة عن الصعود .. كلمةً عن الأفول ،
وفى خيوطِ الكف .. أن فارسَ الأحلام
سوف يشقُّ نحوكِ البحار ،
وتبْسمين فى تخابث الحسان
"يشيِّد قصرًا لى كأنسِ الوجود...
يخطفنى فى مَركب الشمس
يُلْبسنى تاجًا تزينُه الورود
يزدانُ بى فى مَوْكب العرس ،
ويصطفى عقدا من المحار"
حين يشقُّ نحوىَ البحار" ..؟

* * *

رِفيقَتِى ،
وحينَ ينتهى لقاؤُنا
أُلْبسك المِعْطفَ ،
يَحتويكِ...
احتويكِ بعدَهُ مودّعًا
أُلامسُ الخَدَّ الرقيقَ ،

فتُسْلمين غيره كَىْ أطْبَعا.

غدا لقاؤُنا هنا ،

مازال فى كفّكِ ما يقال ،

وفى عيُونِك الكثير ... يا أميرةَ الدلال.

* * *

الاقتـــراب فـى خـــوف

كما يميسُ فى الغابة حين يأمَنُ الرقيب
غزالُها الشاردُ فى محاجر العيون
يخوض فى فضائها الرحيب
هابطا وصاعدا،
يلمس تيجان النبات...
مُقَبّلا وطاعما،
يمد جيدَه الرشيق...
شاربا من أكؤس النسيم
هائِمًا وناعمًا؛
طَلعتِ أَنتِ يا فاتنةَ العيون
يا بّرية الثِّمار
كأنما عَن ذلك الجمال شُقّت البحار
كأنَّ غابةً تهدلتْ ثمارُها
وخالطت أغصانُها جذورَها

وأُثقلت فروعها

وانحنت الثمارُ فوق صفحة الغدير

تختلط الأوراقُ بالأعناق،

يختلط التراب بالفاكهة المؤرجة،

تختلط المياه بالمجامر المُؤججة

كأنما لم تلمس الفروع

أصابع البستان.

* * *

أية غابة رعت دلالَك البرى

يا وَحْشيَّةَ الجمال؟

آتية من غَجرِ الإسبان

أو من صبوة الأتراك

أو من نُضرة الألمان

أو شقت الثلوج عنك فى أطارف الشمال؟

❖ ❖ ❖

كأنما لا تشعرين بالعيون

تريد أن تدنو من مهابة الجسد

لكنَّها تُرَدّ؛

كأنما لا تشَعرين

أن هالةً مهيبة تُحيط بالخُطى وبالكلام ،

وأن ألَقا مُؤَرَّجا

ترسله خيُوط الابتسام

كأنما لا تشعرين

أن هذه القلوب تنصهرْ ،

وهذه الجباه كلها.. تكاد أن تَخِرْ.

* * *

أرسلتُ فى مواكبِ الذينَ أرسلوا

نظرَة شَوْق ضَارعة ،

أَذْهلنى أَنَّكِ قد أذِنتِ لى بالاقترابْ

ترددتْ خُطاى دونَ هذه الأبوابْ

صعدتُ سُلَّمين...

لفَّنى السحْرُ، ولفَّنى الأريج

مشيْتُ خطوتين ،

أحسستُ باليدينْ ،

تنفتحان كانفتاح النور

فى عُيون المغمضينْ

اضطربتْ خطاى،

أغريتِنى بالاقتراب

وحينما لمستِ أطراف أصابعى،

أحسستُ أن هيكلى الشمعىَ قد يَذوبْ

أحسست أن قَطرة باردةً من العَرَق

تَنْبُت مِنْ مفَارق الرأس؛

لكىْ تشقَّ ذلك العنق

تشطر ظهرىَ شطرتينْ.

* * *

ثم اقتربتُ خُطْوَتَينْ،

أدنيتِ لى تُفاحك البرّى

لا مستُه فسكِرتْ شفاهىَ المُشققة

وغامتْ الأشياءُ فى العيون

أحسستُ أن الرِّيح فوق الربْوةِ المؤرجة

أشدُّ من صَلابة الأوتادِ والجبال

* * *

فككتُ من يديك إِصبعى

تراجعتْ شِفاهى المُشققة،

تراجعتْ خُطاى خَطْوتين.

* * *

نظرتِ لى ذاهلةَ العينينْ،

هبطت سلمين

دسستُ جسمىَ المتعبَ بين هذه العيون

أرسلتُ فى مواكب الذين أرسلوا

نظرةَ شَوْق ضارعة

لكننى غرستُ قَبْلها خُطاى فى الترابْ

لأننى جربتُ الاقترابْ

ولا أَطيق الاقترابْ

لا أَطيق الاقترابْ.

* * *

المدرس وعصفور الكنار

للشاعر "جاك بريفير"

اثنان واثنان تُساوى أربعة

أربعة وأربعة : ثمانية

وضعفها : ستة عشر

قال المدرس" اسمعوا ورددوا

اثنان واثنان تساوى أربعة

أربعة وأربعة" ثمانية

وضعفها : ستة عشر

وفجأة ،

يلوح فى السماء عصفور الكنار

يلمحه الطفل ،

يسمعه الطفل ،

والطفل يدعوه

تعال كى تنقذنى

والعب معى يا أيها الكنار
اثنان واثنان تساوى أربعة
قال المدرس: اسمعوا ورددوا
والطفل يلعب،
ويلعب الكنار..
أربعة وأربعة ثمانية
وضعفها ستة عشر،
وما الذى تكونه ستة عشر
عندما نضيفها لمثلها؟
لا شىء إطلاقًا تكوِّنه،
ولن تكون بالتأكيد
ضعف الرقم المطلوب
الطفل خبأ الكنار
فى الدرج،
واستمع الأطفالُ كلهم
لهذه الألحان،
وذهبت بدورها أربعة وأربعة
لتسمع الموسيقى،

واثنان واثنان،

ثمانية ثمانية،

بدورها تسربت

وواحد وواحد

لم تصر اثنين

ولم تعد لحالها الأول واحدا

تسربت لتسمع الألحان،

وأصبح الكنار لاعبا وأصبح الطفل مغنيا

وصاح فيهم المدرس الغضبان

متى تكفون عن التهريج؟

لكن كل طفل كان يسمع الألحان

ورقصت بدورها الحيطان

فى هدوء

تحول الزجاج كى يصير كالرمال

تحول الحِبْرُ إلى مياه

ها هى الأدراج قد تحولت

أغصان أشجار،

وأصبح الطبشور شاطئا،

وها هي الأقلام

تحولت بدورها إلى..

عصافير تغنى.

* * *

سيدة البستان

مَرَرْتُ فى الصباح بالحديقة الغناء
كان الربيع يافعا ،
والزهْرُ كانَ يانعا
والطيرُ كان يَستحمُّ فى أودية العراء
وكنتُ مِمن يَعشِقون الزَّهر والجمالَ والغناء
سيدةُ البستان ،
أنيقَةٌ جميلةٌ خجول
يمتدُّ منها الهدب حَتى الصَّدرِ
والشعورُ تمتدُ إلى مشارفِ الذُّيول
وتُفتح العينان.. تُومضان
بدفقة من الشعاع الأخضر الصافِى.. تغمضان
يشدها الحياء.. حتى تلمس الذقْنُ منابتَ النهود
حمامَتان.. ترقصان بالغِناء ذلك الغصْنُ البعيد
سيدةُ البستان ،
تقود منى الخطوَ فى أوديةِ المكان.

تدير صوتا ناعما.. إذا اقترينا من زهوره البيضاء
ويدخل الشراب وادعا.. ويخفت الكلام
تنْحّل عقدَةُ الحروف مثل لغة الأحلام
فإن سَمَوْنا نحْو هذه الجُنَيْنَةِ الصغيرة ؛
حيثُ الورُود الحمرُ والأوديَةُ الكثيرة
ترتفع الأصواتُ بالغناء ،
تزدادُ سَوْرة الشرابِ بالدماء
وتُفْتح العينان.. تشْربان الضَّوء
تختزنان منه للمساء والسحر
تلوِّنان من خُيوطهِ أشعةَ القمر
سيدتى :
من أَلْفِ عام
تَمرُّ أقدامىَ فى كلِّ صباح ،
فى طرقات ذلك البستانْ
لكننى لم أَدْرِ رَوْعة المكانْ ؛
حتى التقتْ فى ظلّه الكفانْ.

بطاقة يوم مولدى

الـــــــركبُ يمضـــــى بعـــــيدا

لم يصـــــبح العـــــيدُ عـــــيدا

وإنمـــــــا ذكـــــــرياتٌ

تمـــــرُّ مَـــــرا وئـــــيدا

قَطَعْـــــنَ بـــــرًا وبحـــــرا

وجُـــــبْنَ ســـــهلا وبـــــيدا

وذقـــــن مُـــــرًّا وحلـــــوا

وشـــــائكا ورغـــــيدا

فمـــــا جَهِلْـــــنَ قـــــديما

ولا تـــــركنَ جديـــــدا

ولا لبســـــن لصـــــفو

الأحـــــباب إلا ورودا

ولا أدَّرَ عـــــن لكَـــــيْد الا

غـــــداء إلا حديـــــدا

ولا أتـــــــيْنَ خفـــــاءً

شـــــيئا يَعِـــــبنَ شـــــهودا

ولا ابتســـــــمن ريـــــاءً

ولا علــــــون جُحـــــــودا

ولا خُـــــدِعن بـــــزَيْف الــــرُّ

ؤى وإن كُـــــنَّ غـــــيدا

وإنـمــــا اخْـتَـــرن أرَضـــا

بكــــرًا وَحقــــلاً عَــــنُودا

صَــــبَرن للشَّـــوك وَخْـــزا

وللـــــــرِّمال صُـــــدودا

وللــــــبَوار اجتــــــياحًا

يَغْــتَـــال أُمـــًّـا وَلُـــودا

وللصـــــــخورِ مـــــوَاتًا

يسْـــــتوطنُ الأخــــــدودا

مضـــــين بالعَـــــزم شـــــوطًا

فَـــــلَّ الحديـــــدُ الحَديـــــدا

أحطـــــن بالحَقْـــــل خُبْـــــرا

تُـــــرْبًا ولُـــــبًّا وعـــــودا

رَعَيْـــــنَه بمـــــياه العـــــيون

غضـــــًّا ولـــــيدا

غطَّـــــرنه بمـــــياه الجـــــباه

عطـــــرًا ودودا

عشـــــقْنَ تُـــــربا نَـــــديًا

عَفَـــــرْنَ مـــــنه الخـــــدودا

فأنـــــبت العشـــــقُ عشـــــقًا

وأثْمَـــــر الجُـــــودُ جـــــودا

وأفَـــــرْخ الشَّـــــوك فُـــــلاًّ

ونَرجســـــًا ووردا

ولَـــــذَّ حتـــــى مـــــذاقُ الأ

شـــــواك طـــــوَّقن عـــــودا

ومـــا غَـــدا الصـــخُر هَمًّـــا

مُـــــــؤرقا وَكـــــــئودا

فـــى قَلـــبه شَـــقّ نـــبتٌ

غصـــنًا لـــه مولـــودا

والـــركبُ يَعْبُـــر هَـــوْنا

حيـــنَا، وحيـــنَا صُـــعودا

الـــركبُ يمضِـــى بعـــيدا

لم يُصـــبح العـــيدُ عـــيدا

لأجلك يا حبيبى

للشاعر "جاك بريفير"

حبيبى ،
ذهبتُ لسوق العصافير،
اشتريتُ لأجلك عصفورة
يا حبيبى ،
ذهبت لسوق الزهور ،
اشتريتُ زهورا ؛
لأجلك أنت حبيبى
ذهبتُ لسوق الحديد
اشتريتُ سلاسلاً
سلاسلاً كانت ثقيلة
لأجلك أنت حبيبى ،
ثم ذهبت لسوق العبيد
فتَّشْتُ عنك
ولكننى لم أجدك
حبيبى.

الضفائـــر الذهبيـــة

يصدنى تراكم الهواء فى أعالىَ البحار

وزفرة الريح التى يلتفُّ فى طياتها الضباب

تستطيرُ من خلالها الثلوج ؛

تُخيفنى همهمَةُ التيار.

أسمع للألواحِ فى قاربىَ القديم.

أنّة اعتصار

تهتزُّ ريشة الشراع

... الخوفُ من تحطمِ المجداف

الخوف من هاويةِ القرار.

* * *

أعشقُ ريحَ البحرِ عندما تهب ،

أعشقُ حتى العَطن الخفيف

عندما يُغَلِّف البحارَ فى مشارف الصباح

حتى ملوحة المياه ،

أعشق أن أقود زورقا

مجدفا .. قربَ شواطئ الأمان.

تَحْتَ أَعْيْنِ الصحاب

أبصرتُ خُضْرةَ العيون

عذوبةَ الضَّفائر المُذَهّبة

وجهَكِ الذى يُضئ كالقمر.

....

لوحَّتِ باليدينِ

أنْ أحكم قَبْضة المِجداف

وأن أَشُقَّ المَوج لاَ أخاف

وحينمَا يصيرُ قَاربى الصغيرُ

فى حِماكِ

سوفَ تشدُّنى يداكِ

للسفينة المذهَّبَة.

* * *

يحجبك الضبابُ عن مشارف العيون

لحظتَيْن .. لَيْلتَين

وعندما أصرخ لا أَسْمع رَجْع صَيْحَتى ،

تمتص صوتى الحوائطُ المبللة

....

يشعُّ ثم يختفى ،

ضياء ثغرك الرقيق

وأستعيد ألَقَ البريق ،

عذوبةَ الضفائر المذهَّبة

برغم أننى أرجفُ من هَمْهمَةِ التيار

أسمعُ فى ألْواح قاربىَ القديم

أنّـةَ اعتصار.

* * *

المصبــاح القديــــم

تحية إلى أستاذى الدكتور فتحى عبد المنعم عندما ودعناه فى فرنسا عائدا إلى مصر بعد طول غياب وقبل رحيله عن الدنيا بأشهر قليلة.

كَكُلِّ الذينَ مَشَوْا فى دُروب أثينا
وفى النَّاصرة،
وفى طُرقات "المدينة"
أوْ فى مساربِ امّ القرى
مشيتْ.
تحمل مصباحَك الصَّدِأ المْتآكَل،
وتحمل قدْرا وَفيرا
من الحُبِّ والزَّيْت.
وتؤمُن أن الكَلام هُو الله،
وأن بقَايا النُّبَوةِ
فى كَفِّ منَ ينْسجون من الحرفِ
سَوْطًا ونورا،

خطوتْ.

وما كان بُردُك منَ طَيْلسان ،

ولم تَكُ تأوى إذا ضمَّك الليلُ

للقَصر والفُرُشِ الناعمة

ولكنَّ رهْطَك كان مريدينْ ،

عشاق معرفةٍ وادعينْ

وناسا من البسطاء ،

يجيئونَ أو يذهبونْ

وكنتِ إذا ما تنسَّمت ريحَ الصفاء

شعرتَ بأن البَقايا تَهُونْ.

❖ ❖ ❖

تشارف أسوارها الآن ،

بخطوكِ .. مصباحكِ الصَّدأ المتآكل

وقدرٍ وفيرٍ من الحُبِّ والزيت

....

ورَهْطٍ منَ الوادعينْ

لا تعلم اليَوم أينَ يَحلُّون

وحتى إذا ضاع صوتُك فى البَدء ،

بينَ الزِّحامْ.

فإنَّهمُ ذاتَ يوم قريب

على رجْعِ إيقاعة القَمَرىِّ.. سينتفضون

وحين تُعانق وجهَك ريحُ الصفاء ؛

ستشعر أنَّ البقايا تهونْ.

* * *

الشعـــر والزحـــام

تهيأتُ قبل نزولى من البيت،
رتبت أوراقى الشاردة
حديثى عن "الشعر والحب"
سوف يُسجل فى "العاشرة".
وسوف تراه الجماهير فى سهرة الليل
حين يقول المذيع : "هنا القاهرة"

* * *

تخيرتُ ثوبا أنيقا،
قميصًا جديدًا،
ودَنْدَنْت فوق السّلالم
سوفَ أراوح بينَ الحديث
عن الحب والشعر
والناس والزهر.
وكيفَ تَفوح الحروفُ بعطرِ الصَّفاء،
وكيف نُضَمِّخُ بالشعر بسمتَنا

فى ثنايا اللقاء.

* * *

فتحت الخطى نحو سيارتى

تنام بعرض الطريق

وألقيت نظرتى العاجلة

تَبَيَّنْتُ أن الإطار ينام

فصبيان شارعِنا مولعون ؛

إذا هدَأ الليل أن يغْرسوا

لستُ أدرىِ لماذا

مساميرَهم فى كُعوب الحسان.

* * *

زفرتُ وشمّرت ،

ثمَّ فَكَكْتُ ، رَبطتُ ،

رفعتُ وَضَعْتُ.

وغَطّى قليلٌ مِنَ الشّحم طرْف القميص

نسيت التَّحُمس للزَّهر والشعر.

دَلفتُ إلى مقعدى...

وأدرت المحرك...

أبطأ عَنى بدا لى ثَقيلا
وكدْتُ أفتشُ عنْ صَبْيةِ الليل...
أوقظهمْ .. يَدفعونى.
ولكنَّ سيارتى جامَلتنى وسارتْ
تفرِّج هَمّى قليلا.

* * *

حين يَرقُّ النسيم
على شاطئ النيل فى الصبحِ أَنْسى ،
ويسترسلُ الشِّعر منىَ هَمْسا
ويصبحُ فى كلِّ شىء حَوَالى شِعْر
وأحلم أن يتَحولَ هذا النسيمُ بكفِّى غَزْلا
لأنسجَه وأُوشّى به صَدْرَ مصر.

* * *

وأن ينبتَ الحبّ فى الطرقات ،
وفى الشرفات ،
وعند الوداع ،
وعند اللقاء.

....

....

يسد الطريق عليّ - وياللغَباء -

سائقُ "شاحنة كالجبل"

أتى من يمينى فَسَدَّ شمالى

وحرَّك مَقطورةً للوراء،

وأطلق صفارةً فى الهواء،

يَفزَّع من هَوْلها الطيْرُ فوْقَ رؤس النخيل

وجاوبَهُ سائق نائمٌ على بُعْد ميل،

تداخل آت وماض،

وحقٌ وباطلْ.

أتى الشُّرَطىّ يُدَخِّن سيجارةً فى هُدوء،

تكلمتُ لم يسمع الناس صَوتى

وردُّوا علىَّ ببعض السِّباب،

صرخْتُ صرخْتُ فَبُحَّتْ عروقى

وضاع النداء...

أحسستُ طَعم الكوابيس...

حين نَصيح بأفْق تجمَّدَ فيه الهواء؛

فترتدُّ أحرفُنا طَعْنة فى الحُلوق

....

تذكرْتُ أنّىَ لابُدَّ أنْ أدخر..

بعض حبالى ؛

كيما أعلق فيها حديثا

عن الحُب والشعر عن نفَحات الزَّهَر

وقُلتُ دعونى أمَرّ ،

ولكنَّنى حينَ وازيتُهم صفعونى ،

وحين تقدمتُهم طعنونى ،

وحين شكوتُ إلى الشرطى

استدارَ وغَنَّى ،

وحين شكوْتُ إلى الناس

أشبَعنى مُعْظم النَّاس لَعْنا

تريدُ الحديثَ عن الشِّعر والحُب

فلتُطحنِ اليوم طَحْنا

* * *

وحينَ لَـمَمْتُ جروحى

ونفَّضت عنىَ بعْض الغُبار

وجمَّعتُ بَعْضَ حِبالى

وهدَّأت داخليَ المضطرب
كان حنيني للزَّهر قَدْ مات،
كان حديثي عن الشِّعر قَدْ فات
ولكنَّ صوت النفير المدوى
وصوتَ الضجيج وطعم الدخان وفوضى الكلام
كان يجلجل فى الطرقات.

* * *

رأيت خلقاً كثيراً

للشاعر "جاك بريفير"

رأيت رجلاً ،

يجلس فوقُ قبَّعة..

لرجلٍ سواه

وكانَ شاحبا ،

وكانَ يَرْتجف ،

وكان يَنْتظر

شيئا من الأشياء.

ليس يهم ما الذى يستمعه

الحرب أو نهاية الدنيا

ولم يكن من الممكن اطلاقا له

أن يتكلم ،

أو أن تندَّ عنه حركةٌ

رأيتُ آخرَ

يبحثُ عن قبعته ،

كان شحوبُه أشد

وكان أيضا يَرْتجف

وكانَ دونما توقف يصيح

قبعتى.. قبعتى ،

وكان يشتهى أن يذرف الدموع

رأيت رجلا يطالع الجريدة

رأيت رجلا لدى تحية العلم

رأيت رجلا تلفه الملابس السوداء

وكانت الساعة فى معصمه

وحولها سلسلة ،

حافظة النقود

أوْ سِمة الشرف ،

وأنفه معقوف ،

رأيت واحدًا يسحب طفله من يده

وهو يصيح.

ورجلا بيده كلب ،

ورجلا فى يده مقبضُ سيف

ورجلا يبكى ،

ورجلا يدخل الكنيسة ،

ورجلا يخرج منها.

* * *

بقايا الطيف الجميل

لم أعد أذكر هذا الاسم ،
ضاعت فى الزحام الأحرف الأولى
ولا تختزن الذاكرةُ الآن سوى بعضِ حُروفٍ
لونَّتها سحبُ الصَّيف الرمادى
بأنسامٍ صَفَتْ فوق غُصون الياسمين
واكتستْ بَعْض مذاقِ الخُوخ والتّفاح
والفاكهةِ الصيفيةِ الأُخرى.
أتتْ والقلبُ ناءٍ عن تِلال الهم
فارتدت به بضعَ سنين

* * *

لم تَعُدْ تختزن الذاكرة الآن
سوى عَيْنين نَجلاوَيْن ،
ونُتوءٍ ساحرٍ فى صَفْحِة الخد
يَشى ببقايا لمسة من بعض فرسان المغول
كان فى بعض نقاط الزمن الغابر

قد تَمَّ لقاء

بين رِيح الشرق والوجهِ الخجول

كانَت الأوديةُ المغترباتُ،

الخطوطُ الثابتاتُ،

قد تَمَرَّدْن علَى قَسْوة هذا الفلك الدائر

واشْتقن إلى تَحْطيم أسوار التباعد؛

فارتمت َيوما خطوُط الطول

فى أحضان خَطِّ العرضْ.

لم أعد أذكرُ كيف انشقت الأرضْ،

ولا كيفَ بدأنا

كلمات ساذجات...

فوقها نَعْبُر هَوْنا.

مِن خلال الأحرف المختلفات

نَضبط الإيقاعَ .. نَرتادُ النوافذ،

تتهادى رغبة الدمّ معَ الدم

نَتعرى خَلْف أستارٍ من الكلمات،

نتلاقى رغَم أَشْواك خطوط الطول

تمتد الأيَادى للخطوط الثابتات.

ثم تمحو
فيصير "النيلُ" و "السينُ" امتدادًا واحدا
ويصيرُ البَحْرُ جِسْرا
وتصيرُ الحكمة الشرقيةُ الأولى دواءً أبديا
بمراعيها الخصيبة
والتقاءُ الشفتين
نفثةً من سحرِ هاروتَ وباريس وطيبة.

* * *

لم أعد أذكر كيف التقت الكفان،
فى لحظة صمت قاتلة،
قبل أن نرتد مقهورين،
لكن الحروف الباقيات
إذ تعيش الآن فى ذاكرتى
لونتها سحب الصيف الرمادى
بأنسام صفات فوق غصون الياسمين،
واكتست بعض مذاق الخوخ والتفاح
والفاكهة الصيفية الأخرى
أتت والقلب ناءٍ عن تلال الهم
فارتَدتْ به بضع سنين.

العاصفـــة

استوحش القلب واهتزت رؤى الوادى

صُـبِّى حنيـنك ، إنــى مُـتَعبٌ صــادى

أرى علــى الأفْـق سـحْبا لا مـياه بهــا

يمشـى بهــا الخطـو صـعبا غـير مـنقادِ

وتلفــح الــريحُ منــى وَجْـه ذى جَلَــدٍ

لكـــنَّها حُمِّلـــت أنْفـــاسَ جـــلادِ

قــد عُبـثتْ عَفـنا ، أغفــى بهــا زَمـنا

وهاجَــه نســمةٌ رفَّــت علــى الــوادى

فـــدوَّمَتْ تســـتثير الـــترب غاضـــبة

وجلجلـــت بخـــوارٍ رائـــح غـــادى

وأنشـــبت فـــى أديــم أرض لاهـــثة

تـــرتاع حـــين تـــرى ظـــلاً لأعـــوادِ

تزغرد الريح فى البيت الخراب ، ولا

تهـــش حـــين تلاقـــى شـــم أطـــوادِ

مســـكينَةٌ هـــذه الأهـــرام شـــامخة

تنُوشـــها عاديـــاتٌ مـــنذ آمـــادِ

تعـدو عليها صِـغار الـذَّر قـد جُمعت

أَهْـوِنِ بهـا مـن جَماعـاتٍ ومـن عـادِ

وربُمـا عششـت فـى سَـفحها زمـنا

واسـتيقنت مـن مصـير قـادم بـادى

وجنَّح الحلـْم بالـذرات فانـتفخت

وشعشـع الـزهوُ فـى آمـاق حسَّـادِ

واهتـز رأسٌ علـى ذل الطـوَى طـربا

واصــفَرَّ مُجْجـر عــينٍ غــير وقــادِ

وغمغمـــتْ ألســـنٌ بكمَــاءُ لاغــية

وزاحـم البُوم صـوت البلـبل الشـادى

وانـداحت الأذن حتـى صـار محـورها

باعـــا ، وقَلَّـد قِـــطٌ مشــى آســاد

لكـــن قبضـــةَ ريـــحٍ غَـــيرَ عائـــبةٍ

تَـذرو ، وزخَّـةَ مـاءٍ تَطْـرُق الـوادى

يغـدُو بهـا الصـخرُ صـخرا والغبارُ لقًى

والـــذّر ذرًا علـــى جمْـــعٍ واحشـــادِ

حلّاق بغداد

نـــزلْت بغـــداد ذاتَ ضـــائِقَةٍ

الكَـــيْلُ ســـوء وتَمْـــرُها حَشَـــفُ

والـــناس فـــى ســـوقها تناوشـــهم

حكايـــةٌ بالـــرياء تلـــتحفُ

عـــن أَمْـــر حلاقهـــا الشـــهير ومـــا

لا قُـــوه مـــن شـــأنِه ومـــا اعتســـفوا

مِقَصُّـــــه بـــــاردٌ وعُدتـــــه

وَطـــبْعه باللـــزوجِ يتَّصـــــفُ

ومِـــنْ عجـــيب تُـــريك بســـمتُه

قَلْـــبا بمـــاء الـــودادِ يـــرتَجِفُ

لكـــنَّ موســـاه طَـــىَّ إصـــبعه

وحلمـــه بالـــوريد ينتـــزفُ

وســـاعةَ النَّـــزف لـــن تـــرى كـــذبا

إلا دمـــوعًا بعيـــنهِ تكـــفُ

يبكـــي صـــديقًا ومُخلصـــا وأخـــا

وقلـــبُه لا يشـــوبُه أســـفُ

لا يُظهِـــر الـــرأى صـــادقا أبـــدا

ولا مَـــعَ القـــائلين يَخْـــتلفُ

وإنمـــا كُلُّهـــمْ علانـــيَةً

بـــدرٌ، وطـــيٌّ الضـــمير، مُنْكســـفُ

وكلهُـــمْ - حاضـــرا - أخُو ثِقـــةٍ

وفـــي الغِـــيابِ السُّـــمومُ تُرتشـــف

وفـــوَق أكـــتافهم معلقُـــة

مـــنه النياشـــينُ، دُرُّهـــا صَـــدَفُ

وبعضـــهم غافـــل ومـــدْرِكٌ

ســـيان مَـــنْ غُوفِلـــوا ومَـــنْ عـــرفوا

لم تُسْـــتَر نخـــوةٌ، ومـــا قُـــتِلتْ

وشـــايةٌ، والعـــيون تنصـــرفُ

يـــا أهـــلَ بغـــدادَ ضـــلَّ ســـعيكمُ

الكـــيلُ ســـوء وتمـــركم حشـــفُ

وكلُّكـــم خاضـــعٌ ومُنْـــتكس

والـــرأسُ دُون المِقـــَص يَـــرْتجف

مــا كــان حلّــاقُكمْ ســوى هَمَــلٍ
مكانُــــه بالهــــوان يتَّصــــفُ
لا يســــتوى حابــــلٌ بجيشــــكمُ
ونابــــلٌ للصــــدور محــــترفُ
وطــــامحٌ يشــــربُ الفــــراتَ ولا
يُــرْوى ، ومَــنْ بالحفــان يغــترفُ
وصــــانعٌ للــــرؤوس يملــــؤُها
عِلمــا ، ومــن حَشْــو رأسِــه تلــفُ
وصــائغُ الشــعر فــى جَلالــته
وباعــة الكُــتْبِ كــيْفما وُصــفوا
وســاحُ "مأمــونكم" إذا عَمُــرت
ومَــنْ هــواهُ الفُخــار والخــزفُ
وصــوتُ "إســحاقكم" إذا صــدَحَتْ
أنغامُــه ، والنعــيقُ والخــرفُ
وقــادُة الجــند حــينَ تأمُــرهم
أعــرافُهم أو يُهــيجُهم شــرفُ
غــيرُ حُمــاةِ الــبغاءِ يأمــرهم
نَخّاســهم إن حــنوا وإن صــلفوا

لا تظلمـــوا الدهـــرَ إن طغـــا وربـــا

ولا تقولـــوا: الـــزمانُ ينحـــرفُ

فـــنحنُ أهـــل الـــزمان، ســـار إذا

ســـاروا وَأَقْعَـــى بهـــمْ إذا وقَفـــوا

* * *

خارج أسوار باريس

أتيتُ يا باريسُ واسعَ الخيال ،
ضيِّقَ الخطى ،
أدُقُّ بابَك العتىّ
فلا يجيبُنى الصَّدى.
أدقُّ بابَك العتىّ
والليلُ باردٌ يبلّل الوجودَ بالنَّدى.
والريحُ تَجْلد الغريبَ خارجَ الأسوار
واحْتمى بِمعطفى سُدًى سدى
أكادُ أنْ أغيبَ فى طيّاته
وَأنْ أشُدَّ شَعْرَ رأسىَ القصيرَ فَوْق أُذنى
وأن أغيب داخلى.
تكاد أن تقتلنى الرياح خارج السور العتى ،
يسألُنى حارسُك الليلىّ
عن هُويتى وغَايتى فلا أُجيب.

أغالب النَّحيبْ.

أحلُم أن تُفَتَّح الأبواب،

وأن أشم عطرَك الزكىّ

أملأ منه رئتىَّ....

أغسلُ منه صدرى الذى يفيضُ بالحنين.

وأن يموجَ ضوْء فَجْرك الندى

وأن أرَى الخيطَ الذى تُنسج منه بردةُ الصباح،

وأن ألُوذ تَحْت طَرَف الوِشاح

أحلُم يا باريس أنَ تهُبّ نسمةٌ دفيئةٌ

على مَلامح الغريب

وأَنْ يُذيب قطْنه من أذنيه؛

كى يَشْرب الصوتَ الحبيبْ

وأن يكفَّ عنْ تَكاتم النحيبْ.

وينزع المعطفَ كى يكونَ واسع الخُطى

أحلُم أن يُذَوِّب الجليد،

وأن يثور فى العروق دفؤُك الوليد

وأن تفُكَّ قدمى التى تجمَّدت.

خارجَ سُورك العتىّ

يسْألُنى حارسُك الليلى
عن هُويتى وغَايتى فلا أُجيب،
ألوك فى فمى الصموت
مقطوعةً قديمة من أغنية
عن الحنين والوطنِ
وعنْ تقلّب الزمن.

* * *

في بيتي

للشاعر "جاك بريفير"

في بيتي سوف تجيئين ،

وعلى أَيَّةِ حالٍ

هو ليس ببيتي

لا أعرف مَنْ صاحبه.

يوما ما

كنت دخلت إليه ،

لم يكُ أحد به

لم يكُ إلا بعض زهورٍ حمراء

قد رشقت فوق جدار أبيض.

ومكثتُ طويلا داخل هذا البيت

لم يأت إليه أحد ،

لكن كانت تمضي الأيام ،

وتمضي الأيام ،

وأنا دوما أنتظرك ،

لم أكُ أفعل شيئا إطلاقا

أعْنى ، لم أك أفعل شيئا جادا

أحيانا فى لحظات الصبح

أصرخ مثل الحيوانات

أنهق مثل حمار ،

بكل قواى

وأحس بأن صراخى ونهيقى

يُمتِعنى.

أحيانا

ألعب مَعْ أقدامى

فالأقدامُ من أَذكى الأشياء ،

هى تحملكَ بعيدا ،

حين تكون لديك الرغبة

أن تذهب أنت بعيدا ،

وإذا لم ترغب فى أن تخرج من بيتك

ظلّت معك الأقدام.

تعبتْ فى صحبتك الأقدام.

أما حين تدور الموسيقى ويدور الرقص

لا يمكن أن نرقص إلا بالأقدام،

لابد أن تكون ساذجا

كالشأن فى الإنسان

فى معظم الأحيان

لكى ترى سذاجة الأشياء أو غباءها

فمثلا يُقال فى الكلام:

"هو أغبى من قدميه،

هو مِرحٌ مثل الكروان"

ليس الكروان بمرح

هو مرح أحيانا حين يكون لديه مرح

وحزين حين يكون لديه الحُزن

أحيانا يبدو دُونَ شعور

هل نعَرف ما معنى الكروان؟

هل هو فعلا يُسَّمى بالكروان؟

إن الإنسان قد اختار لهذا العصفور

اسم الكروان

كروان.. كروان.. كروان

ما أغرب تلك الأسماء.

هذا يدعى "مارتان" وهذا يدعى "هيجو"

وذلك يدعى "نابليون بونابرت"

ولماذا يدعى هذا دون سواه،

وقطيع من بونابرت "تمشى فى الصحراء

وثمة ملك فيها يدعى بوحيد السَّنم العالى

وحصان يحمل صندوقا،

والصندوق به أدراج،

وعلى البعد هنالك إنسانٌ

يدعى "تيم، تام، توم".

* * *

وهنالك أيضا شخص ما

وأبعد منه قليلا

يوجد أيضا شخص ما،

لكن ماذا يعنينا

من هذا كله

فى بيتى سوف تجيئين

وأنا يشغلنى شىء آخر،

لا شيء سواه.

حين تكونين ببيتى

فلتتَعرَىْ من كل رداء،

ولتنتظرى دون حراك

عارية واقفة،

والشفة الحمراء

تبدو كالزهر الأحمر

رُشقت فوق جدار أبيض

ثم تنامين،

وأنام قريبا منك

حسنًا.. حَسنا

فى بيتى سوف تجيئين

وعلى أية حال

هو ليس بيتى.

* * *

البحـــر والـــدفء

البحر الدافئُ عارٍ ،
وأنا عارٍ
والرمْلُ الناعمُ ممتدٌّ مُسْتَسلم.
تحت أشعةِ ظُهْر تتحرقُ شوْقا للموج
لتنكسرَ عليه تتحطمْ ،
والموجُ يُداعب أقَدامى
يُغْرينى أنْ أتقدَمْ.
وأنا أحلمُ.. أحلمُ.. أحلمْ
أُغمض عيَنىّ لتمتدَّ المتعَةُ خارجَ أسوار اللحظة ؛
أفتَحُ أذرعىَ الظمأى للموجِ لكىْ يتحطمْ
ما أجمَل أن تَحملنا الأمواجُ .. وأن نَحْملها
أن نرحلَ فى الزمن الغابر ،
قبلَ ثبات الأَقدامِ علَى التُّرْبْ
أن نَرحَل فى الزَّمن الآتى
حيثُ الكون الرحبْ

أمامَ الأحلام الورديةِ يستْسْلم ،
ما أجملَ أن نشْعرَ بالدفءِ المتبادَل
بين الأمواجِ وبينَ الأجسام الظَّمْأى
وصراعات تقهرُنا .. نقهرُها .. تَدْنو .. تَعْلو .. تتَحطمُ نَتحطم
ونغوص حتى نلمسَ فى القاع الصخرَ،
فينتفضُ الجَسَدُ العارى للموج
ويرتعشُ الرمْلُ الغافى ،
نقفز والنشوى فى الأعماقْ،
نعودُ إلى الشاطئ .. نستْلقى
تتسعُ الأحداقْ،
تملؤها الزرقةُ والخضرةُ .. والخَدَرُ المتداعى
الحُلْم الزاحف .. والجسدُ الممتد
وأشعَةُ ظهر ما عادت ساخنة ظمأى
ونسيم مُجْهَد

....

....

ما أحلى النوم على شاطئ بحر
كان عتيًّا ثم خَمَد.

غـــدًا مـــن الفجـــر

للشاعر "فكتور هيجو"

غدًا...

حين يَبْيَضُّ من طَلعة الفجر وجهُ القُرَى

سأرحلُ، أعلمُ أنكَ فى الانتظارِ

وسوفَ ترى،

سأرحلُ عَبْرَ البرارِى

وعبر الصحارى

فما عدت أحتمل الصبرَ عنْك بعيدًا

* * *

سأمشى،

عُيونى لا تبصرانِ سوى ما يَدُور بِقَلْبى

وأُذناى.. لا تَسْمعان دبيبَ الحياة،

وحيدًا غريبا

حنى الظهر واشْتَبكتْ راحتاه

حزينًا

تتشابه عندى النهارُ مع الليل ،

* * *

سأمضى ،

ولن يستثير عيونى

تبرُ المساء الوليد ،

ولا روعةُ الأشرعِ القادمات

تبدو بعديا ،

وتسعى وئيدا

إلى الشط

وحين أجئ لقبرك

سوف أحط عليه

بباقةِ آسٍ

وزهرة فُل.

* * *

أشـواكُ الصمـــت

إنَّـــه الصـــمت.. رانَ حِسًّـــا وظـــلا

نـاء قلبى بـه ـ علـى الـرغـم ـ حِمْلا

قـد تهـاوىَ فـى الـبَدءِ طَـيفَ هـدوءٍ

خلْـتُه مـن ضَـجيج عُمْــرىَ أحلــى

وتنسَّـــــمتُه اســـــتراحَة جِســــــم

أثْقلَـــتْه الأيــــامُ بعْضًـــا وكُلًّـــا

وتَوَسَّـــــمتُهُ مــــــناخًا ومـــــأوى

يتفــيا مــنْ عُشْــبه الــرَّحلُ رحــلا

قـال لى الصـمتُ: حـط بالـربع إنِّـى

هـــيِّن لا أكلِّـــف المـــرء ثقـــلا

هـــدأت ناقتـــى ونَامـــت خُـــيولى

وســـحابٌ مـــن الســـكون أظـــلاً

وتـــناءى عنـــى الصـــهيلُ، وسَــيفى

فـــى حَـــنايا الأغْمـــاد قَـــرَّ وحَـــلا

هـــا هـــو الجســـمُ يَســتريح ويَغفــو

يَتمَطَّـــى شَـــهْرا ويَـــنْعسُ حَـــوْلا

هـــا هـــو الأفْـــقُ لـــيس إلا ذراعًـــا

طوَّقَـــته العيـــنانِ حَـــزْنا وسَـــهْلا

هـــا هـــو الـــبدْرُ لا يـــبثُّ حديـــثا

لم يَعُـــد فـــى عيونـــىَ الـــبدْرُ طفـــلا

شِـــخْتَ يـــا بـــدر ... أم تـــبلّد حســـى

لم يَعُـــدْ مســـمعى لســـرِّك أهـــلا

هـــاَ هـــو الحُســـن، إن تَجلَّـــى قلـــيلا

وتَهـــاوى بســـحرِه وأطلَّـــا

لا أراهُ يقـــول للـــنفس ســـرا

لا أراهُ يُهِـــيجُ للشِّـــعر قـــولا

كانـــت المومـــياءُ مـــن قـــبلُ شـــعرا

وجمـــالاً فـــى حســـنه أتملـــى

كـــان صـــوتُ النَّقـــيقِ إيقـــاعَ لـــيلٍ

مـــن مَـــوَاتِ السُّكون أصْـفَى وَأحلـى

كـــان طعـــمُ الغـــبار فـــى صـــفحة الحلـــق

شُـــموخًا يقـــول للصـــعب: أهْـــلا

كـان عَصْـفُ الـرياح يَحْمـى جُـذورا

لا تَــراها الديــدانُ للأكْــل سَــهْلا

إنَّ مَـــنْ هَمُّــه الـــركونُ لنـــبع

شــاركتْهُ الطحالــبُ العُشْــبَ أكــلا

أيــنَ ســيفى.. وعُدتـــى.. وَلِدَاتـــى؟

أيهـــا الصـــمت: لا أريـــدك خِـــلاً

* * *

الطّيــف

تسللتِ طيفا رقيقا إلى النفس ،

مثلَ نسيمَ ليالى الربيع

على شاطئِ النيلِ

فى ريفـِ مِصْر.

مثْل شُعاع القمر

تسللتِ عبر اللحونْ

كأنشودةٍ حلوة من أناشيد فَيْروز

هَزَّت زَوايا السُّكون

* * *

وها هُوَ طيفُك يرتاحُ بَيْنَ الضلوع ،

وبيْن الشُغافـِ وبَيْنَ الحنايا

وها هو وجهُك ألقاهُ عَبْر جميع المرايا

وها هو صوتُك يعَزفُ فى أُذنى الأغانى

فيحجب عنى أحاديثَ كلِّ البشر

وحينَ يصافحُ رَأسى الوسادة

يحملُ لى قسمات الخَدَر،

ويسبَحُ بى فوق كل الشطوط،

وكل المدائن،

يسبحُ بى عبر كل العصور

طيفا من النور

وترنيمةً من أغانى الزهور.

* * *

موسيقى باريسية

حين دخلت فى تلعثم الغريب ،

وَغفوة الوسنان ،

يسبقنى لسانى العيّى

أسأل أينَ (أنْدرىّ)؟

أيقظنى انسيابُ موجةِ النغم

مِن ذلك الوجه الحيى

... تقول أنْدرىّ؟

ـ أجل أقول أنْدِرىّ

وحق وجهكِ الوضىّ.

....

وحين شدّت فى رشاقةِ الغزال عودَها

غالبتُ شوقىَ البدوىّ داخلى ،

قيّدت أذرعى التى كانَتْ تريد

وقدمى التى أراها تَنْتشى ،

من بعد أن قيَّدها الجليد،

ووجهى الذى تصاعدت فيه الدماء

ثم تسير،

تهتزُ باريسيَّة النهودِ والخُطى ولفتةِ الشعور

وتعْزفُ الكلام دافئا وناعمًا وليْنا

وأستعيدُ النَّغم الرخىّ

أسألُ أين أندرىّ؟

ولا أريد أندرى

وإنما أودّ أن أعُبّ ذلك العبير،

وأن أطوّل المسير

- غدا يجيء أندرىّ

سوف أجئ فى الغداة والعشى

لوجهك الوضىّ،

وصوتك الرخىّ

ولا أريد أَنْدِرىّ

لا أريد أندرى.

* * *

قلـب الشاعـــر

"صاحب "مقام المنسرح"

قلـبُك هـذا الـذى تُحـيط بـه

ذَوْبُ مـرايا تَشـى لـرائيها

فيُسْـمع النـبضُ قـبل مَـولده

وبسـمةُ الضـوءِ فـى حَواشـيها

وخفقـةُ الشـك إذ تخامـره

وهجعَـة الأمـن فـى تهاديهـا

ومِـرْجلُ الظـن حـين يَعْصـف

بالدُّنـيا ومَـا تحْـتوى ومـا فـيها

وهـدأةُ الصـفح حـين تعقُـبه

لقـاء عُلـيا الأجفـان دانـيها

ولسـعَةُ الـثلج فـى تـوهجها

كلسـعة النَّار عَـزَّ راقـيها

قلبُكَ والكونُ في سباق هوىً

عوالمٌ لم تزل تلاقيها

تُريدها مثلما تصوّرها

وأمرُها عالق بأيديها

وترسلُ الشعر في جوانبها

وتَغرسُ الوردَ في نَواحيها

وليس كلُّ الرجال مُدرَّعا

لحَلْبة المجد في تَساميها

وليس كلُّ الفرسان عنترةً

وليس كلُّ الكلامِ تشبيها

وناضرات الورود يافعة

تعجّ بالشوك في حواشيها

وطالما هزنا نقاء فتىً

طهْرا وكان الخفاءُ تمويها

فهوّن الأمر.. ليس إن بركت

بالشام نُوقٌ تروحُ تبكيها

وليس إن أنذرتْ وما عصفت

ريحٌ تميتُ الدُّنا وتحييها

لا تـــترك الـــنار حـــين تُطفـــئها

تمـــس مـــنك الحـــياة .. تطفـــيها

قلـــبُك هـــذا مـــدَادُه ذهـــبٌ

وأضـــلُعٌ حـــوله تناجـــيها

فخفـــف الـــوطء فـــى الغُلـــو بهـــا

لاَخُفـــفَ الضـــوء مـــن مآقـــيها

* * *

بطاقــــة صغيـــرة

إلى ابنى "هشام"

فى عيد ميلاده الأول

غدا...

عندما يغمُرُ الصبح باريس

.. يندفعُ الناس تحُت المعاطف فى كلّ صوب

ستطرقُ أصبعُك البابَ،

تدفع أقدامُك الحلوةُ العارياتُ

ـ كما اعتدْتَ ـ تلك الكرةَ؛

.. لتَعْبُرَ خَيْطا رقيقا

.. لتدخُلَ عامًا جديدا

فما عدتَ طِفلا وليدا.

* * *

"هشامُ "العزيز ...

لقدْ مرَّ عام ..

وأنتَ تُعطر ساحَة أيامِنا

بغمّازَتَيْك ،

وسمرةِ عَيْنيك

.. مَكْرِهما حينما تضحكان على أَبَويْك ،َ

ومِنْ أبَويكْ ،

بكل براءةِ شيطانك المستكنّة فى راحتيك

تبعثر.. تُلقى .. تُمزقُ

كلّ الذى تستطيع ..

ويَهْرع حولَ خُطاك الجميعْ..

وتُضْرَب فوْق يديك ،

على إلْيَتَيْك

ولكنْ تردُّ ببسمتِك الحُلُوة الصافية

بغمّازتيك ،

بسُمْرةِ عينيك

مكرهما حينما تضحكان

على أبويك ، ومِن أبويك.

الفــأسُ ... والنجــم

عندما مرَّ بنا العامُ

ولم نَجْن الثمارا...

وتساءَلنا..

أهذي الأرضُ تزدادُ بوارا؟

لَمْ نقُلْ.. فلنَنْفض الأَيْدى من التُّرْب

ونرحلْ،

إنما قلنا.. لنعملْ،

* * *

تذكرينَ النظرَة الأولى لذاك الحقلِ

فى صمتِ الجبل ...

تذكرين الضربَة الأولى لهذى الفأس

صخْرٌ لا يكل...

تذكرينَ الخطوةَ الأولى

رجاء يبتهلْ

أملٌ ناءٍ وأشباحٌ تطل

لم نقل ساعتَها
"العودُ أجمل"
إنما قلنا "لنعملْ".

* * *

كان عامُ الصُّلب مَحْنِيًّا،
وعام الساعدينْ
واحمرارِ الراحتينْ
واندفاع النفس المزفور
يشوى الشَّفَتْين
واحمرار المقلتينْ
ما استرحنا ساعة تحت الشجيرات لنأكلْ
إنما قلنا .. "لنعمل"

* * *

ها هو العامُ بنا مرّ...
ولم نجن الثمارا
إنما .. لم تزدد الأرضُ بوارا
ها هى التربةُ تحْتَ القَدم الظمآى تلين
ها هى الفأسُ استكانَتْ.

لثنايا الرَّاحتين.

ها هُما العينانِ تَرْتدانِ

نحو المحجرين

تَأخذُ الأنفاسُ

إيقاعًا رتيبًا ينتظمْ

غيْرَ مخضوبٍ بدمْ

وتشى التربةُ بالأسرار

شيئا غامضا لا يستبين

أرهفى السمع .. فقد نلتقط السرَ الدفين

أرسلى العينين

خلف الأفق الممتد،

فى جوفِ الضباب

ربما تلتقط العينان نجما

ينظم الخطو المبعثر

ربما نعمل أكثر.

فـى القطــــار

تمرين فى خاطرى كُلّما

يمر القطار ببعض محَطات باريس

وأهمسُ باسمك ؛

تقفزُ فى عينىَ البسماتُ النديَةُ

منْ شفتيكِ

فأُمْسك بالخَيْط ،

أحاولُ أن أَجْمَعَ القسِماتِ

وجهَكِ.. عينيك .. شَعْرَك

هذا الذى حطَّ فوق رُباه

المساءُ ولم يرحل

وتأتى إلىّ رويدا رويدا

أكادُ أمدّ يدى فى الهواء

أحدّثها فى القِطار

وأَجْهَدُ كى تَخْتفى كلماتُ شفاهى

عنْ أعينِ الناظرينْ.

وأُغمض عينىّ كَيْما نكون وَحيدَيْن

ولكنّ وَجْهَك يمَضْى،

يذوبُ كما يتلاشى الرحيقُ بأجسامنا

تاركًا حلاوتَه فوقَ طَرْف اللسان

أفيق على ضَوءِ لافتة

تشدُّ عيونى...

محطتُنا أَقْبلَت

تشد أصابعى التائهاتُ الحقيبة

وأصعدُ. ألهثُ. أحلمُ

أكلمُ نفسى،

تَذوب خطاى

تحت انهمار المطر.

* * *

"سطور من كتاب الموتى"

مولانا كانْ

ـ كالعادة فى تلك الأزمانْ ـ

فى "طيبَة" فى القصر الشتوى

يستلهمُ آلهةَ النيل البركةَ والتأييد،

ويغنى فى البهو الملحَق

كهنةُ "آمون"

حرّاسُ الحقّ الأزلى:

"يا بنَ الشمس

رعَتْكَ الآلهةُ

وصبَّت فى عَيْنيك النُّور،

وكستْ وجْهَك مِنْ سُمْرتها

دفِئا وجسَارة

ولْتحرسْ كلَّ قصورِك

كلَّ معابدِك المنبثة

فى أرجاءِ الدلتا والوادى المعمور
ولتُبعد عنْك لُعابَ الجوعى
وعيون الحساد.

❊ ❊ ❊

ومليكُتنـــا ،
كانَتْ قد بَاركت النيل صَباحا
حين أطلّتْ عند مشارفه البحرية
وخطّت بالقَدم المْرْمَر نَحْوَ الشَّطّ
فغَنَّت كلُّ عَروسٍ نيلية ،
وأحاطت آلهةُ البحرِ بموكبها
جاءَت "فينوس" من الأرض الإغريقية ؛
كىَ تَرْكع للحُسن المصرى
لمليكتنا المصريّة.

❊ ❊ ❊

الجَوْعــى
شمّوا رائحةَ شواءٍ فى إحدى الحفلات الليلية
كان أميرٌ يُدْعى "فرعون" الأصغر
من أُمراء البيتِ المَلَكى

قد شارك فى حَرْبِ "الهكسوس" بسَيْف سِحْرى
فأقْسمَ أن يحتفِل بهذا النَّصر
فى رَدهات القَصْر
حتى ليلتِه الأُولى بَعْدَ الألف
قال الجَوْعى :
"شيئًا من لَحمِ الظُّلف"
واصطَكَّ البابُ الفولاذى ،
وتَحَسّس شيخُ الحُراس
مِقْبَض سيفٍ ذهبى.

* * *

النّيلُ...
اهتَزَّ الموجُ بهِ
واضْطربَتْ أشْرعةُ الملاّحين
وتهدَّج صوتٌ
كانَ يُغَنى موَّالَ حَنين
وَطفَتْ فوقَ السَّطْحِ بَقايا أسْماك
قالوا : سُرِقَتْ ،
قالوا : غَرِقَتْ
قالوا : فِعْلةَ تمساح مَجْنون
غرَّر بالأسماكِ الجَوْعى

أوردها وادى الموت الأَحْمر،
ماتَت مِنْ هول الرُّعبِ
إحدى الفلّاحات على الشَّطّ
كانتْ تَغْسلُ أثْوابَ بنيها مِن عَرق مَلْعونٍ
قالوا: غَصَّت بخطيئتها
لا يَطلبُ غفرانَ الربَّ لها كهنةُ "آمون".

❊ ❊ ❊

فى اليوم التَّالى
غنَّى كهنةُ "آمون"
فى صَلواتِ الفَجْر الأولى:
"ما أعْدَلَ حُكمَكَ يا بن الشمس
حين يموت السمكُ الجائعُ
ينقصُ عددُ الجَوْعى.
فليسقط حسادُك مقهورين
وليسقط أعداؤك صرعى.

❊ ❊ ❊

المماليـــك

يختلفُ اللصُوصُ حَوْل التَّرِكةْ ،

يختلفون فتدور المعركة ،

يختلفون فتفوحُ هذه الروائحُ

التى تَراكمت ، تَداخلتْ

واختلطتْ على الأنوف فترةً من الزمن

حتى تشَابه الرَّيحان والعَفَنْ.

يختلفُ اللصوص والجُنود القواد ،

الشيخُ والقَوَّاد ،

ومدَعو النبوةِ الأَوغاد ،

والسماسرةْ.

* * *

يا قاهرة ،

خيلُ المماليك تعوَّدت على اقتحامِ حرمةِ الدروب ،

رماحُها فى أعْين الناس تجوب

حيّوا السَّلاطينَ العِظام

موكبُ مَوْلانا الهُمام ،
سيَتْرك القَلعة بَعْدَ العصر ؛
كى يَشْمَّ نسْمةً من الهَواء
فلتخبئْ فى جَوْفها الأشياءْ
جنودُه المدرَّبون
سوفَ ينزلونَ
للأزقّة الصغيرة ،
وللحوارى
المجدُ للجوارى
ودونَهن يَسْقُط الرجال
تسْقُط النساء
وليَخْفضِ الجميعُ هذه الجباه ؛
حتى تَنتشى رماحنا الشماء

* * *

يا قاهـرة ،
خيلُ المماليك تعوَّدت على اقتحام حُرمةِ الدروب
رماحُها فى أَعْين النَّاس تَجُوب
حيَن تَلُوح كلَّ دورة مَن الزَّمن

روائحُ المخاض،

مشَقّة الميلاد

وحينَ يطرحُ السؤالُ بيَنهم

مَنْ سيّدُ البلاد؟

ساعتَها يختلفون فتدورُ المعركة،

يختلفون حوُل توزيع السَّبايا،

حولَ حَجْم التركة

فتنتشى من نومها الأسلحةُ المدجحة

ويملأُ الصهيلُ قبَّةَ الحسين،

تطاول الرماح أعناقَ المآذن

تُداس أعتابُ المنازل،

يُفزَّع النسوة حاسراتٍ

وتنزعُ الحلمة مِنْ فَمِ الرضيع

يَنْبَعِثُ الشرارُ من آسنّةِ السيوف

حينَ تلتقى.

ويسأل الجَند المُحَيَّرون

من سيدنا الذى نطيع

* * *

يا قاهــرة،

خيْل المماليك

تعوَّدت على اقتحامِ حرمةِ الدروب

لكنْهم حين تلوح بينهم بوادرُ الصفاء؛

يَصَّافحُ الجندُ الذين اقتتلوا

ويَذهبون كلُّهم فى خيلاء

إلى ضفاف النيل؛

كى يشموا نسمةً من الهواء

ولتختبئْ فى جَوْفِها الأشياء.

* * *

حوارية مع المـــوت

(١)

كيفَ مررتَ من خَصاص الباب...

وهْو مُحْكمُ الرتاجْ؟!

وكيفَ لم نُبْصرك محمرَّ العيون

أو منْتفخَ الأوداج؟!

أو غارسًا أنيابَك السوداءَ

فى رِئة الهَواء؟!

أو مُشِرعا أسنَّة الأظافِر المدبَّبة

أو مرْسِلاً حتى زئيرَ الدِبَبة

أو عاكِسًا فى العَيْنِ لْمحةً صفراء

تُؤذن أن الشَّمس قَد تَغيب؟!

أو ناشرًا سحابةً سودَاء،

تفر من وعيدها الطيورُ للأوكار

تَلزمها بقيَّة النهار؟!

(٢)

كنا عهدنا خطوَك المألوف
منْذ ألفِ عام ؛
يدبّ خفُّك الثقيلُ
قُرْب شَاطئ النَّهر
ولجْةِ البَحر ... وريح العاصفة
أو تَخْتفى بينَ خنادق الجنُود
أو تَحْتمى بالطَّرف الأَزْرق
فى أسنةِ اللهيب.
وطالما تضرّع الناسُ إليك
... براحةٍ تضنُّ راحتاك
على سرير سئم السوس الذى يُناوشه
حتى إذا طالَ الرَّجاء
دخلتَ ... فاهتزّ الهواء
ولفحتْ وجوهنَا أنفاسُك الثقيلة
واستل أصْبعاك آخرَ الخيوط ،
وصوحت بقيةُ الخميلة

(٣)

كنا عهدنا خَطْوَك المألوف
يجئ أحيانًا على شَكْل ذُبَابةٍ زَرْقاء

تَدف بالجَناح فِى عُيوننا ،

تسبقُها أنفاسُها السوداء ،

تغرِس فى منَابت الشَّعر لُعَابها اللزج

تكاد بالخُرطوم فى العَينين أن تَزجّ

ذبابة زرقاء قد أصابها الصلفْ

لا تنصرفْ ،

ولا تقفْ.

ساعتَها نقول إنّه نذيرُك المعهودْ

تضطرب المهودُ واللحود

ساعتَها نُدرك أن شبَحًا يدورُ فى الأفْق

فيتركُ الباب مواربا

تنسل أنتَ دون أن تدقْ

(٤)

لكنكَ اليوَم قدِمْت هادِئا ،

وصامتًا ،

خدَعْتنا ،

خاتَلْتنا ،

أرسلتَ فى العيون موجةً من الضِياء

وفى الخدود جذوة حمراء،

وبسمةً بيضاء

ولم تُعَفِّر بالرمَاد طلعَةَ المساء

ولا هزَزت الأرض هزةً خفَيفة

ولا ترامى مِنْ عواء أو مواء

ثم أتت قبضتُك المخيفة

فى لحظةٍ ... لتخنقَ الضياء

كيف مررت من خَصاص الباب

وهو مُحْكَم الرِّتاج؟!!

ومن تُعِده لوجْبةِ العشاء

يا أيها المهتاج؟!!

* * *

أغنية شوق إلى القاهرة

إذا انتصفَ الليل ،
وخيَّم فوق شوارع باريس
هذا الهدوُء الثَّقيل ،
وأغفى الذين تُنبِّههم دقّةُ الساعةِ
الخامسةِ.
مددُت أصابعى الظامئات ؛
أبحثُ عن صَوْتِك العذبِ ،
وأغنيةٍ حُلوة هامسة ،
وأسترقُ السَّمع
عَبْر تداخل كلِّ الإذاعات
كلِّ اللغات ، وكلّ الأغانى
أُفتش عن صَوْت فاتنة قاهرية
لا تَنْطق الجيم (عَطْشى)
ولا (تشْبعَ) الحرفَ إلاّ قليلاً

وتتكئَ الكلماتُ على شَفَتيها طويلا
وألقاكِ،
يَختلطُ الصَّوتُ منكِ
بخشْخشة البَحر حين عبرتِ عليه
بتهويمةِ الريحِ حينَ ركبتِ حناياه
تبحثُ عيناكِ عنى
وعنْ كلِّ عشاقكِ الساهرين.

* * *

إذا انتصفَ الليل،
وخيَّم فوق الشوارع هذا الهدوء
الحزين
وظلّت شوارع (بولاق)
تَمشى بها (الرِّجْل)
ولا يَعْرِف النومَ (حيُّ الحسين)
وفاضتْ بسكّانِها الغرفُ الضيّقات
فهبوا إلى السَّطح،
للطرق الذاهباتِ إلى النهر،
للبحْر

حيثُ اختلاطُ اللآلى برمل المحار
وحيثُ الضجيج
يغالبُ صوتُك موْجَ البحار
وزوبعةَ الرّيح ،
زَيْف الطّواحين ،
حُلْكَة كلِّ الليالى
ويعرفَ شطَّ النهار
هنالك تستقبلُ الأذرعُ الظامئات
عشاقَها الساهرين
بعد أسَى الانتظار.

* * *

أغنيــة قديمــة

حين التقطْنا من تَتابع الدُّروس

أنفاسَنا ،

وانطلقتْ منا الخُطى

تبحثُ عَنْ مقهى قريب

همستِ فى الطريق لى

"برغم أننى لا أحسن الغناء

فى غيبة الجيتار

سوفَ أغَنى

بعض أغنياتى القصار"

وقلت" :

"هذه المقطوعة الحزينة

تحدَّرت من فولكلورنا القديم

من الهنود الحمر ،

تحكى عن توهج الحنين فى الصدور

الشوق للرجال

الراكبين لحَظة النضال"

* * *

كمَا تسيرُ رعدةُ التيارِ فى الضلوع ،

كما يموجُ هادئًا تألقُ الشموع

كما يُقطب الحنينُ دون أن نُحس

ترقرقَ الدموع...

... تماوجَ اللحنُ الحزين

أُحس بالغبطِة والشَّجى يلتقيان ،

أحس لحظة التقاءِ الخوفِ والأمان

برغم أنَنى لا أدركُ المَعانْ

يَحْملنى صوتُك عَبرْ حاجز الزمان

حاجزِ المكان ...

* * *

وأستعيدُ لحنَك الموَرد الحزين

أوقظ فى الدماء عطشَ الحنين

مُنْذ سنين

لم أَقْضم الثمار ،

مُبْتلة بقَطرات من نَدى
لمْ أغْترف مِنْ صفْو نَبْعٍ
بارِدِ القَرار.

* * *

حين صمت...
ظل صوتُك المغردُ الحزين
يملأ حولى المكان
أبصره تَموُّجًا ينداحْ،
نجمَةً تشع،
نورسًا مُهَفْهف الجناحْ.
أشمُّ فيه عبَق الحنين
قادما من الهنُود الحمر،
من صَعيد مصر،
مِن فُؤادى الحزين

* * *

فجـــأة

فجـأةً ،
يستيقظُ الحُلم الذى كان غَفا مُنْذُ سنين
ونَشُمُّ الخِصب يسرى فى عروقِ الأرض
يَمْتدُّ إلى جَوف السنابِل ،
ضاربًا فى كُلِّ مخضرٍ وذابلْ
فجـأةً ،
تنتفضُ الاشجارُ عَنْ أوراقها الخُضْرِ
وتَذرو الريحُ مَا أنْبته عُمْرُ الجفَاف
والغمامات العجافْ.
فجـأةً ،
تنهمر الأمطارُ
ترتدُّ شقوقُ الأرضِ أنهْارا
وقيعانُ الرمال الصُّفر
مرآةَ النجومِ

وتُنْبت الأحجار أزهارا

فجــأةً،

ينتبه المَلاَّح من غَفْوتِه

كانت الريحُ التى يَعشقُها

قَدْ سَكَنَتْ جوفَ السماء،

والمجاديفُ التى ظَلَّت على الشط سنينا

جفّفتها لفحةُ الشمسِ وكادت

أن تَرى الموقدَ فى ليْلِ الشتاء

ها هو المَلاَّح مشدودًا

إلى صوتٍ شجىّ،

قادمٍ من عمق هذا البحرِ

فى رِقة حَوْراءِ،

وفى صِدق نبىّ

ها هى الريحُ تُغنى،

ها هى الأمواجُ تمتَدُّ حصيرا

وضبابُ الأفق ينْزاح

وتخضرُّ الرُّؤى فى أعْينِ الملاح

تبدأُ الرحلةُ فى سِحْر مَساء قمَرىّ

فجأة يولَدُ فى النفسِ السؤالْ:
ما الذى يَجْعلنا نَهفو إلى الشِّعْر
إلى أن تَرْقص الكلماتُ فى أفواهنا؟
ما الذى يَجْعلنا حينًا إذا مرّت بنا
كلماتٌ من أغانٍ ساذَجة
تولد الأَشْواق فى أعماقنا؟
ما الذى يجعلنا نستقبل الزهر،
وفى النفس طيوفٌ من حَزَنْ؟
ما الذى يَزرع فى أضْلعنا هذا الشَّجَنْ
ما الذى يَزْرع فى أضْلعنا هذا الشَّجَنْ؟

* * *

رَجْعُ الصدى

تَدُقّين أبوابَ ليلٍ عتيّ،
تحيطُ بأسوارِه الظُّلمات
ويكتنفُ الغيْمُ كلَّ حواشيه
ينتشرُ العسَسُ المتَوَجِّسُ فيه؛
ليرصدَ تَنهيدة الطُّرقات

* * *

وها أنتِ تأْتين،
أشرعةً حلوةً مترعاتٍ بضوءِ القَمَر
يذوبُ لها الليلُ من رِقّةٍ حين تنسابْ
وتهتزُّ أوردةُ الصخرِ
قلبُ النواطيرِ
تَندى عيونُ المَطَر،
وتختلجُ الزهراتُ الصغيراتُ
والزهراتُ اليوانعُ

يخضّل أفق السَّحَر

وها أنْت تأتين،

تهدأُ زمْجَرةُ الريح،

ويبتسمُ الأفُق المترامى

وتُولد بعضُ النُّجيمات

تنسابُ منهنَّ رعْشةُ ضوءٍ وَليد

تُغازل أشرعَةً قدَ طوتْها السنين

بِحُلم دفين.

* * *

وها أنتِ تأتينَ،

تصير الرياحُ بساطا

يذوبُ الضبابُ بكفَّيْكِ نُورا

تذوبُ الغيومُ ندىً،

ويعْزفُ قلبَى رجعَ الصدى

وألقاك

لا ترهبُ الأعيُن الظامئاتُ عيونَ العسَس

ولا يعرفُ الخوفَ قلبٌ أحس

وتلقيننى

موجةً حملتْ كلَّ دفءِ البحار،

وعُمْقِ البحار

وطُهرَ اللآلئِ بَيْن جُفون المَحار

وشوق المياه إلى الشَّطِّ

شوقَ المياه إلى الصَّخْر

شوق الجَوابِ يهيم إلى نَغَمات القَرار

ولكنني حينَ أقبضُ كفّي على الموج

أقبضُ كفّيَ على الدفءِ،

أقبضُ كفّيَ على اللحْن

تذوبُ اللحون بكفي نَدى

ولا يجدُ القلبُ إلاَّ بقايَا الصدى

ويعزفُ قلبي رجعَ الصدى.

* * *

رقصـــة

حين تهَادى فى جوانب السُّرَادق الصغير
تهامسُ النَّغم ،
وخَفتَت نواظرُ الأضواء ،
وشعَّ من وراء ذلك الستار
توهجُ القنادِل الحمراء
تصلَّبت كلُّ العيون ،
وأصغَتِ الآذان
تَسْترِقُ وقْع القدمِ الصغيرة.
وانفرَج الستار
وجِئْتِ فى تدَلل الأميرة

* * *

بزغتِ فى العيون عودَ بان
من حَوْله ترقرقُ الألحان
يندفَعُ الهواُء من قُدَّام ساقِكِ المُطوّفة

ذراعك المْجدّفه

وشعرك الذى يطير

يسدُ أُفُقَ المسرح الصغير

ثم يَحُطُّ وادعًا مُبْعثرا

فوق الغلالة الرقيقِة البَيْضاء

ثُمَّ تزيدُ حُمْرة الأضْواء

وترتَقين سُلَّم النَّغَمْ،

تُعلقين كلَّ الأعين الملتهبة

تلمُّ شعرَك المُبعثَرا

تمتد نَحْوَ هذه الغلائل الرقيقة

تنزعهنّ مِئْزِرا فمئزرا فمِئزرا.

* * *

وحين تُرسلين فى الهواء قُبْلَةَ المُلاطفة،

أو غمزَة المداعبة

يظنها كلٌّ له

لا يقبلُ المُناصفة

يَنْساب فى آذاننا تسربُ النغم،

تنسابَ فى عيوننا عذوبةُ القمم

تُحَلقين مثلما فراشةٍ مهفهفة

بساقِك المطوقّة

وحينما يفجؤنا الستارْ.

يتركنا أسرى لذلك العبير

أرواحنا سابحة مُرَفْرِفَة.

* * *

أغنيـــة خريفيـــة

أضمكِ للقلب،

تَسْتَروح النفسُ

ريح الضحى حين هبّت

وريح الصبا حين شَبّت،

وتستنشقُ النفسُ عطرَ السنين

أضمكِ للصدر

تغدو الضلوع التى لَوَّنتها رياحُ الخريف

شراعَ سفين

وتملؤها النسمات؛

فتسمو

على وَقْع أنغام شَدْوٍ رفيف

تجئين مخضرة العود

ظامئةً لمزيد من الرِّى

شوقَ الزهور لعُمْق الرحيق

فيولد من شفتيكِ الحريق،

وتنبعث الأهةُ الخافتة

إذا ما لمستُ خَفايا الطريق

تهزين أَعْمدةَ الحكمة الرّاسخة

وينبعث الأمَلُ الغَضُّ يولد فى غير موسمه.

ولكنه مثلَ دوامة البحر

تبتلع الموجة الشامخة.

* * *

موعد العاشــق الأشــل

-١-

الليل عاد.. عاد ليل الشجن.. أكفُّه تغزل لي في كفني
الليل عاد.. شوكةً من طاقة.. بالأمس كانت ثرَّة بالسوسن
الليل عاد.. معولُ الصمت الذي يهدم في جنبيّ لا يرحمني

* * *

فليلة الموعد جاءت.. لم تجد غيرَ جريح في إهابي.. مثْخَن
غير بقايا مُقْعَد.. وحفنةٍ من الدموع لم تزل في أعيني
وحُجْرة.. جفّ على حيطانها عتابيَ المرُّ لهذا الزمن
المَقْعد الحزين.. والأريكةُ الملقاةُ في حضن الجدار الخشن
ستارةٌ.. قد صُلبتْ أطرافُها.. شَلّتْ على شباكنا.. ترمقني
وباقةٌ من الزهور.. غاضتْ ابتسامةٌ في وردها الملوَّن
وكومةُ الأوراق بيضاء..! فما خَطت بها كفي... حَكايا حزني
ولوحةٌ على الجدار.. لم تَعُد أبعادُها توحي بغير الشجن
البحرُ.. والضياع في مياهه.. وزورقٌ ضَلَّ طريقَ السفن
وغاب عن ملاحه المنارُ، غاب مرفأ الشاطئ.. لم يستبن
وقصة .. قرأت من كلامها سطرين جامدين.. لم أفتن

تلــوك عينــىَ الكــلامَ.. تــزدريه.. لم يعــد كلامهــا يجذبنــى
فكلمــةُ الحــب.. تهَـيج فــى دمــى بقـيةً مــن أمســىَ المكفــنِ

-٢-

حبيبتى.. وكـلُّ شـىء هـا هـنا.. مـا عـاد غـيرَ مِغـزل فـى كَفنـى
لــن يــرجع اللقــاءُ.. لــن نَعــود طائـرَيْن.. يســحران كــل فــنن
لــن تقفــى حبيبتــى أمــام مــرآتك ســاعتين.. كــى تَزَّيَنِــى
لـن نُنْفق المسـاء فوق شـاطئ النهـر.. وبـين خصـلات السوسـن
حتى الرسـالات. فكفّى عجزت.. أن تلمس الأوراق منذ زمن
الــورق المعطــر الأزرق راح.. لم يعــد إشــعاعُه يغمرنــى

-٣-

حبيبتــى.. غــدًا تجيــئن هــنا لزورتــى .. تجلّــدى.. لا تَحْزنــى
فــى لحظــةٍ خرســاءَ.. مــا أمــرَّها.. قــد جُفــف مــن العِــتاب اللــيِّن
ســتجدين كــلَّ شــىء هــا هــنا.. مــا عــاد غَــيرُ مِغــزل فــى كَفنــى
المقْعَــد الحــزين.. والأريكــةُ الملقــاة.. فــى حضــن الجــدار الخشــن
ونظــرَةُ الإشــفاق.. حتــى نظــرة الإشــفاق.. يــا حبيبتــى.. تقتلنــى
تقــول كــل مــا تتمــتم الشــفاه.. . يــبعدون وقعــه عــن أذنــى
"وآســفا .. مســكين.. كــان طائــرًا وَشـلَّ.. مــا أقســى صــنيعَ الــزمن"

شهريار ... فى الليلة الألف

يا شهرزاد ،

يا ربة الحكمة ،

يا مليكة الجمال والدلال ،

يا قطعة باسمة من النهار ،

تضئ ليلَ شهريار

تغرس فى آفاقه حدائقَ الأزهار

تطوى نهارَه الطويل

لساعةِ المساء

حين يجرُّ الليلُ ذيلَه الرمادى على مجالس السمار

حين تجوبين به شواطئَ المجهول ،

أو مجاهلَ البحار

يرجعُ مطْبَق اليدين

على تلال من حكايا ومحار

يرجع ناعمَ العيون

من جواهر الأمواج والقرار
يعانق الفجرَ بلهفة الحنين للمساء
لشهرزاد
ملكيةِ الحكمةِ والبهجةِ والغناء

* * *

يا شهرزاد،
أتذكرين
كم ليلةٍ مرَّت على لقائِنا
منذ تصافحنا
وشَعَّ فى سماء ليلِنا
ضياءُ عينيك الحنون
قد مرَّ ألف ليلة على اللقاء
حدثتنى،
حكيت لى،
غنيت لى،
صعدت بى مدارج السماء
طوفت بى،
صنعتِ لى عوالمًا باهرة الضياء

أريتِنى لآلئَ المحيط والخليج

عاريةً أو حلوة الأصداف،

سيقتِنى معتَّق الأريج،

عصرتِ لى أطايبَ الأفوافْ

لكننى يا شهرزاد،

لكننى.. أخافْ

أخاف أن أبصر فى منعطف الطريق

نهاية المطاف.

* * *

يا شهرزاد،

نسيتِ أنت من تتابع السنين

نسيت أن شهريار

ترقد فى خياله المعذّب المسكين

حكايةُ العبد اللعين

حين امتطى فراشه المهيب

ونضحت جبهتُه السوداء

العرقَ الآثم فى سريره الحبيبْ

العبدُ يحتلُّ منافذ الأفق

العبدُ يمتطى هياكل الفلك
الشفَةُ الغليظة المشَقَّقة
داست قداسة الملكْ،
الزوجَةُ الخائنة الممزقة
خيالها الخائن ما هلكْ
يا شهرزاد،
يا ربما فى خطوة من خطوات الزمن
من بعد ألف ليلة سعيدة الرؤى
تجئ لحظة الختام
خائرة القوى تئن
تهد صرحنا المقام
تصنع من أظافر القسوة خنجرا
يجرح ثغر أمسنا
ونَحْنُ لابتسامه نَحِنْ
ماذا إذن يا شهرزاد.؟
لو أننا كنا علونا فوق خطو يومِنا
لو أننا لم نسلم الزورق للتيار
يمضى بنا.. يمضى بنا

فإننى أخاف من نهاية المسار

على نقاءِ يومِنا وأمسنا

ماذا لو أننا جعلنا لحظة الختام

تحت صفاء شمسنا

وفى شفاهنا عذوبة الكلام

❊ ❊ ❊

يا شهرزاد،

ليسَ كثيرا أن يكون شهريار

بعد دروس الحكمة البعيدة القرار

تلميذَكِ الحكيمْ،

يُهدى روائع الحكمْ

يَمْنح للحرمان بعض ما يمنح للعطاء،

يَجعل لحظةَ الوداع...

صافية كلحظة اللقاء

يا شهرزاد،

تكلمى.. تكلمى..

فالصمت يروى عُودةَ الظمآن من دمى

ما عاد شهريار

يستل كالأمس خناجر الغيرةِ والعتاب

لكى يُسيل الدمَ كالأنهار

ما عاد شهريار شهريار!

أدرك أننا بمنطق الصفاء

لابد أن نمنح للعطاء بعض ما نمنح للحرمان

يخضرّ من حياتنا الوجهان

يا شهرزاد،

ليس من الجنون

أن نقولها كفى،

وما يزال النهر يعطى ماءه الحنون

ليس إذن من الجنون

حديث شهريار،

يا شهرزاد يا جميلة العيون.

* * *

أغنيــة للســد العالــى
حتى تولد الشمس!!

وراح يطوى الظلامُ الوجودَ.. دربا فدربا

غلالةٌ من سكونٍ كسته شرقا وغربا

وجيْش طير.. صموتٌ سربٌ يلاحق سِربا

ونسمةٌ من حرير.. تفوح عطرا وحُبًا

❊ ❊ ❊

وخلفَ أسوار بيتٍ من البيوت النديّه

ذبالةٌ.. تتداعى.. وشيخةٌ.. وصبية

وموقدٌ .. ودخان.. بقيةٌ من بقيه!

وقصةٌ.. قد روتها العجوزُ.. ذكرى وفيه

❊ ❊ ❊

"صغيرتى..

كان يهوى أبوك هذا الترابا"

"وكان كالنخل طولا.. وكالربيع شبابا"

"وفى الصلابة فأسًا.. وفى النقاء سحابا"

"وكانت الكفُّ مرعى.. وجدولا.. منسابا"

❊ ❊ ❊

"يا طالما مد كفًا.. حطّت عليها حمامه!"

"تنقر القمح نشوى.. طروبةً.. مستهامه"

"وحزمةٌ من حشيش النّدى.. وشاةٌ أمامه"

"وطاقة من زهور الربيع.. لفّت قوامه"

"وذات يوم.. ضحوكِ الصباح.. غَضٌّ النسيم"

"مضى أبوك.. وغابَ القطار خلف الغيوم"

"منديله.. كلماتُ الوداع.. ومضُ نجوم"

❊ ❊ ❊

"راحوا على النهر.. ياما انحنى له ألف رأسٍ!!"

"بالأمس كم قدسوه.. مضى بما كان أمسٍ!!"

"واليوم يزهو على شاطئيه.. موكب عرسٍ"

"فى حضن أسوانَ.. هز الوجود.. ميلاد شمسٍ"

❊ ❊ ❊

"وجاء منه كتاب.. وكنت أنت.. جنينا.."

"سطُوره.. ما تزال السطورُ تروى حنينا"

أمى...

سلام وشوق..

للأرض قمحًا وطينا،

وللربوع اللواتى.. تَضُمُّ سِرًّا دفينا!

* * *

أمى.. هُنا.. فى كِتابِ الوجود.. نَصْنَعُ شيًّا

الصخرُ قُدَّ طريقا.. وكان قبل عصيا

والنهرُ.. ما عاد هذا الجَمُوح صلبًا عتيا

غدا.. نُحوِّل هذا العُتوَّ.. خبزا ورِيًّا

* * *

غدًا.. تصيرُ الصحارى العجوزُ فيحاءَ خَضْرا

سأزرعَ التل وَرْدًا.. وأزرعُ السَّفح بُرًّا

سأعصرُ الأرض خِصبا.. وأعصرُ الكَرْم خَمرا..

ويخنق الجَدْبَ ريحُ الزهور.. تَسكب عطرا

* * *

أمى.. مع العزم يطوى الصخورَ ينسابُ لحنُ..

حكايةٌ من حكايا الصبا.. جمالٌ.. وفنُ

وشاعر راح يشدو.. وأَلْفُ هيمان حنوا

معاول.. شاركتنا الغناء.. وهى ترنُّ

* * *

"صغيرتى..

كان هذا الكتاب آخر عهد"

وبعد سبع ليال.. أضاءها شمعُ سهد"

"قالوا: فتاك احتوته الصخور.. ضمه لحد!"

"وراح.. أول غاز.. شهيد مجد.. وسدّ!"

* * *

النّوبــة.. مزرعة النجوم

"إلى الذين تركوا النوبة وطنهم. ؛
من أجل أن يزدهر الربيع.."

رخاوةُ النسيم.. والمساء.. بسمةُ القمر
ورفقةٌ.. على وجوههم.. ملامحُ السفر
أمتعةُ الرحيل.. والوداع.. موكبٌ يمر..
يعبر دربَه العتيق.. نَحْوَ شاطئِ النهَر

* * *

وربَّما.. فى بعض أعين.. تَراقصُ الدموع
فموكبُ الرحيل.. لن يَعود بعدُ للربوع

* * *

وضمَّنا السفينُ.. والرفاق هزَّهم حنين
عيونهم.. تلتهم الشطئان.. كلهم عيون
نظراتهم.. تعانق الجذوعَ والغصون
والبَيْدرَ الكبير.. حيثما الرفاق.. يسمرون
وربما تُرْسَمُ فى الشفاه.. كِلْمتان

وكِلْمة "الرحيل" .. فوق شفة الرُّبان

❊ ❊ ❊

بالله .. يا ربان.. لا تعجل بساعة الرحيل

لا تشدد الحبال.. لا ترسل شراعك الطويل

لا تدفع المجداف فى رمال الشاطئ الجميل

فنظرتى لمّا تزل هناكَ.. فى وادىِ النخيل

❊ ❊ ❊

لا تُبْعد الوادى.. فيَا كَمْ ضمَّ فى الأَسحار صَبًّا

لا تبعد الوادى.. فقد خَلّفتُ فى مغناه.. قلبا

❊ ❊ ❊

المعبدُ القدُيم كان يشهد اللقاء!!

وهيكلُ الملوك.. يا ما ضمَّنا مساء

نكتبُ فى جدرانه بأحرفِ الضياء

وتلمعُ الشموعُ فى الأصابعِ السمراء

❊ ❊ ❊

وربما نخلس فى المساء.. قبلتين

وتشهدُ الدروب عاشقَيْن.. عائدَيْن

❊ ❊ ❊

والعرسُ.. يا ما شهد الأعراسَ وادينا النضير
الشاعرُ النوبى، والأرغول، والدُّفُّ الكبير
مغامرات السندباد فى جزائر العطور
ورقصات الفتية السمر.. وإشعال البخور

* * *

وربما خلف جدار ذلك الصياح..
أقرأ فى عيونها.. الحنين للصباح

* * *

حبيبتى. وكلُّ بقعة هنا.. فى أرضنا
قد شهدتْ ذاتَ مساء.. بسماتِ حبنا
أعشقها.. أعشق كَوْمة الثَّرَى فى حيِّنا
والمعبد القديم.. والنخيل عند المنحنى!
وَشاطئ الجدول.. والبيدر.. والعرس الكبير
وبسمة الأصيل فى خمائل الزهور..

* * *

لكنما.. من أجل أن يزدهر الربيع
من أجل أن تبتسمُ العيدان فى الربوع
وفوق دربنا الطويل.. توقد الشموع

ويولد الحب.. ينير أعين الجميع

من أجل.. أن يخضوضر الزيتون والكروم

ودعتها.. تركتها.. مزرعة النجوم!

* * *

المعذبـــون فــى السجـــن

العام دار دورتَه ،

مرتْ على الرحيل كومةٌ منَ الليالْ!

مشدودَة القلوب والُمقَل

شمْسُ الهجير أَحرقتْ أَعْينَ ظِل

وجفَّفتْ جدولَ ماء

لكنما فارسنا

قد قال يوما كلمته

وأطلق العنانَ للرحيل.

* * *

العام مَرَّ

والليلةُ التى رحلَت فى دجاها قاسيَة

والسجنُ جدرانٌ رهيبة العيون والشقوق

والليلُ قضبانٌ.. وخلفَه الرحى والطاحنون

وأعظم الرجالِ لا تلين

وموجةُ العنادِ لا تلين

والليْلُ قضبانٌ مكين

* * *

يا شُرَطى ،

كفَّاك حمراوان بالدماء

الدَّمُ فوقَ مِرْفقك ،

الدَّمُ غطَّى ساعِدَك ،

الدَّمُ فى عُيونك التى تَشِعُّ بالنِّقَم

وفى شِفاهِك التى تُوزِّع الرياء.

* * *

يا شُرَطى..

الدمُ سالْ

وعندما تُبَلِّلُ الطريق بالدماء

ينزلق الجلادُ والجواد

* * *

يا سيدى ،

أخجل أن أقول كِلْمةً قديمة مبتذلة

الفجر يعقبُ الظلام

ودمُك الزكى يدفع السفينَ للأمام
وفى غدٍ تنبت فوق أرضك المَغتصبة
أغصنُ ظل..
تورقها حرارةُ الدماء.

* * *

الحروف .. والشجر

أتذكرين،
يَوم حَفَرْنا فوَق جِذع شجَرة
برغبَةٍ فى أُظْفُر مُسْتَعِرة
حرفَيْن يرْمزان لا سمَىْ عاشقين
أنا وأنت،
أتذكرين.

* * *

أخضوضرَ أحمرارُ ظُفرك الجميل
وهوَ يُدافع اللحاءَ وليونةَ الشجر،
وأنت تَحْفرين
وَتكتبين أوّلَ الحُروف
وحولَ حَرْفينا رسَمناَ قلْبَنَا
أخْضر مثل ورَق الشجر،
وليِّن الطيات كاللحاء

وصافيًا كقطرةِ المطر

أتذكرين؟!

* * *

ويومها قلنا: لِيَشْهدَ الربيعُ حبَّنا

وليسْقِه الندى على مشارفِ الصباح،

ولتعْزف البلابل التى تَزور أغصن الحديقة

لحبِّنا ألحانهَا

ويومَها قلنا: وَلَوْ أَتَتْ عواصفُ الخريف

تهزأُ بابتسامة الشَّجر

تَنْفض عنه ثَوْبَه المخضوضرَ الجميل؛

سوفَ يظل ألقُ الحروفِ باقيا

لأنها تَمْتص من عراقةِ الشَّجر

من عُودهِ الصُّلب وجذعه الدفين

أتذكرين.

* * *

ما أكثر السذاجةَ المْجنحة

يحملها العشاقُ فى قلوبهم

حين تكونُ غَضَّةً مُنْفتْحة

لم نَدْر أن الريحَ قد تجئُ ذات يوم...
قاسيةً كقسوة الخريف...
فتقتلع،
تهزأ بالأغصن والجذوع،
تحوِّل الندى إلى دموع
وألَقَ الربيع صمتَ ساعةٍ مجرحة،

* * *

زيـــارة سجيـــن

"سيّد صِدّيق"

اسم من خارج أسوار السجن العالية يرونْ

يتسلق جدران السجن الملساء

يحاول أن يصعد للشرفات ،

ثم يَهنْ.

يرتدُّ جريحَ الأحرفِ.. دامى الكلمات

يمُوت بدون كَفَن

* * *

"سَيِّد صِدِّيق"

الأمل يراود شفة ذابلة الأوراق

صفراء ارتعشتْ فيها الكلمة

أن تسمعها

فتطير الأحرفُ.. تسبقُها عيْنُ الأشواق

تبحثُ عن كُوَّةِ حِائط

علّ عيونًا ترْقُد فيها ،
تنتشل فراشات الكلمات الحائرة بدون هُدى
تمسَح دمع مآقيها
وتبل صدى الأذن المملوءة أصداءً حيرى

* * *

"سَيِّد صِدِّيق"
ويحرك وقع الكلماتِ حذاءَ الشُّرَطى الحارس
من يقتحم الحرمةَ.. ويحطم قانون الأمنْ؟

* * *

يا سيدتى :
للقاء المسجونين زمنْ
ونداؤك يلفتُ أَلف أذنْ
ويسيلُ لعابَ عُيونٍ مُسْبلة الجفنْ
وأمدُّ يَدى أبحث عن عظمة
ألْهِى الشُّرَطى بها
وعيونٌ تتبع وَقْعَ يدى
وعيوُن داسَت فى نَهَمٍ جسدى
"الصدر .. وما فى الصدر .. نَهَمْ!"

ويَسيل لعاب،
وتُحرك فيه الرغبةُ بسمَة ذِئب
ترسُمها شفةٌ صفراء

* * *

- يا سيدتى:
زوجُك .. أصنعُ عينى مصباحا له
إن بخل السجن عليه بضوء
وأقدّم أنفاسى الحرّى،
إن بخلت حجرته بالدفء
من أجْل الصدر.. وما فى الصدر
"لم تشبع بالعظمة.. تطمع أن تقتات اللحم"

* * *

"سَيِّد صِدِّيق"
والدمعةُ تهطل فوقَ الخد
قد كان العش بلا أسوار
يحميه الشُّرَطىُّ من اللص
من يحمينى من نَهم الشرطى اليوم؟!

من شعـــر الإخوانيـــات

أحبُّ شعر الإخوانيات، وقد ضاع للأسف معظم ما كتبته فيه مفردا أو بالأشتراك مع صديقى حامد طاهر ومحمد حماسة عبد اللطيف ومما بقى من قصائده المفردة، هذه القصيدة المواسية لأبى همام صاحب مقام المنسرح.

إيَّـــاكَ أن تنحنـــــى، وتَنْعَصِـــــرا

إنْ عاصـــفٌ مـــن رياحهـــا عَبَـــرا

فمـــا تَمَـــسُّ الـــرعودُ هابطـــةً

ولا تـــرومُ الـــرياحُ غـــيرَ ذُرى

ولا تُصـــابُ الـــرءوسُ إنْ خضـــعتْ

ولا يُـــرادُ الفـــؤاد إن ذُعِـــرا

* * *

وأنـــتَ مـــن يعـــرفُ الجمـــيعُ فَتـــىً

يمـــلأ مـــنا القلـــوبَ والبَصـــرا

مـــالاح عـــبرَ الســـطور غـــيرُ ســـنا

فكـــيف لم يبصـــروه إذ نُشِـــرا

مـا فـاح طـيٌّ الـزهور غـيرُ شـذا

فكـيف لم يُسـتطبْ، وقـد عَطِـرا

مـا امـتَحْتَ غـيرَ الـندى تقدمـه

والكـأس مَـن مَـسَّ طـيفَها سَـكِرا

حـين تكـونُ القلـوب مظلمـةً

لا تسـتطيب الشـموس والقمـرا

فـلا تظـننَّ بالشـموسِ، ولا

بالضـوء، بـل بالمـريض حـين يـرى

❖ ❖ ❖

وقد رد عليّ بهذه القصيدة:

لـيس لـدى الحادثـات طارفـةٌ

لـم أَبْلُهـا فـى الـزمان قـد غَبَـرا

فمُقـبلُ الغـيبِ رؤيـةٌ عَبَـرَتْ

لمسْـتُه ظاهـرا، ومسـتترا

عـرفتُه، مُمسـيا، ومُصـطبحا

أصـحبُ مـنه الـنجومَ والقمـرا

عـباءةُ الفجـرِ مـن أناملـه

خـيوطُها إن ضـياؤه سَـفَرَا

لكنني لم أُفِدْ بصُحْبته

فعارفُ الغيبِ مثلُ مَنْ نَكِرا

ما ضوؤه غيرُ نسجِ ظُلمته

يخبطُ فيها العميانُ والبُصرا

إنْ أسلمتهْ إليّ هاتفةُ

من الأثير انتبهتُ، لستُ أرى

وإن تهز الأسماءَ ساجعَة

من طيفِهِ، لم تُصخْ، وإن عَبَرا

عجبت لا، فالعَجيبُ أنَّ لنا

إليه شوقًا، ما زالَ مُبْتَدِرا

عرَفتُ ياغيبُ، ليس معرفتى

إلا ظلاما، قد طاف بى وسَرى

فرُدَّنى للأيامِ مدبرة

عرفتُها قاطِفا ومُعتصرا

حسبىَ أنى قطعتُها رجلا

لم أبْكها مُصعِدا، ومُنْحدرا

لم أخن الحرفَ فى طهارته

ولا مشيتُ الضَّرَّاء والخُمرا

ومـا انحـنتْ للخطـوب جـبهةُ مَـنْ

يعـافُ وجـهَ الأمـان، والحَـذَرا

مَـنْ غُشِّـيتْ نفسُـه إذا لمحـتْ

حـريةَ الحـرفِ، بـات منكسِـرا

وَمَـن يعـافُ الهمـودَ، يأنـفُ مِـنْ

أن يتمشّـى فـى الـروح معـتذرا

ومـن يعـافُ الأَحْـلاس، تـزدحمُ

الأوجـهُ مـنهم، فـلا تكـاد تُـرى

ومـن يعـافُ الـرجال مِـنْ خَـدَمٍ

لا يعـرفونَ البأسـاءَ والظّفَـرا

❖ ❖ ❖

لـيس لـدى الحادثـات مِـن عجـبٍ

إذا عـرفنا مـن أمْسِـها نُـذُرَا

لكنهـا - والأسيـفُ سـاهرةٌ

همـومُـه - تهتـدى لمـن سَـهرا

تهـزُّه، تسـتبدُّ، تنـبشُ فـى

الأضـلاعِ، ليسـت تـرومُ غَيْـرَ قِـرَى

لكننـــى مـــا أنحنـــيتُ، عاصـــفة

رياحُهـــــا، إذ رأيـــــــتُ لى وزرًا

فـــى حســـدِ الحاســـدين جاحمـــةً

نيرانُـــه، فـــى الـــوداد إذ عَطِـــرا

ســـلمت شـــعرا صـــفت مـــودته

خـــير وداد الصـــديق مـــا شـــعرا

وما هذا الذى يجتاحنى
إن أَشْرفَ الطيف الجميل
وهو على المدى يُشْرفْ
هو الظمأ الذى لا يرتوى
والشوق ممتزجا
بنبضة كل شريان
به يهتفْ.
هو الصفو الذى تتصالح الألوان فيه،
وتستريح العين
يسبح زوق الأمال
مثل تدفق التيار ليس يقف.
هو الزمن استرد نسائم الفجر،
استرد شجاعة الخطو،
استرد حلاوة القفز،

استرد رحابة الأفق العريض

عذوبة الميلاد،

معنى أن يدب الصحو حتى فى تفاصيل الزمان المنصرف.

* * *

الفهرس